1024

١٠٢٤

Harlequin

روايات عبير

دار النحاس

liilas.com

آفاق بعيدة

إيفون هويتال

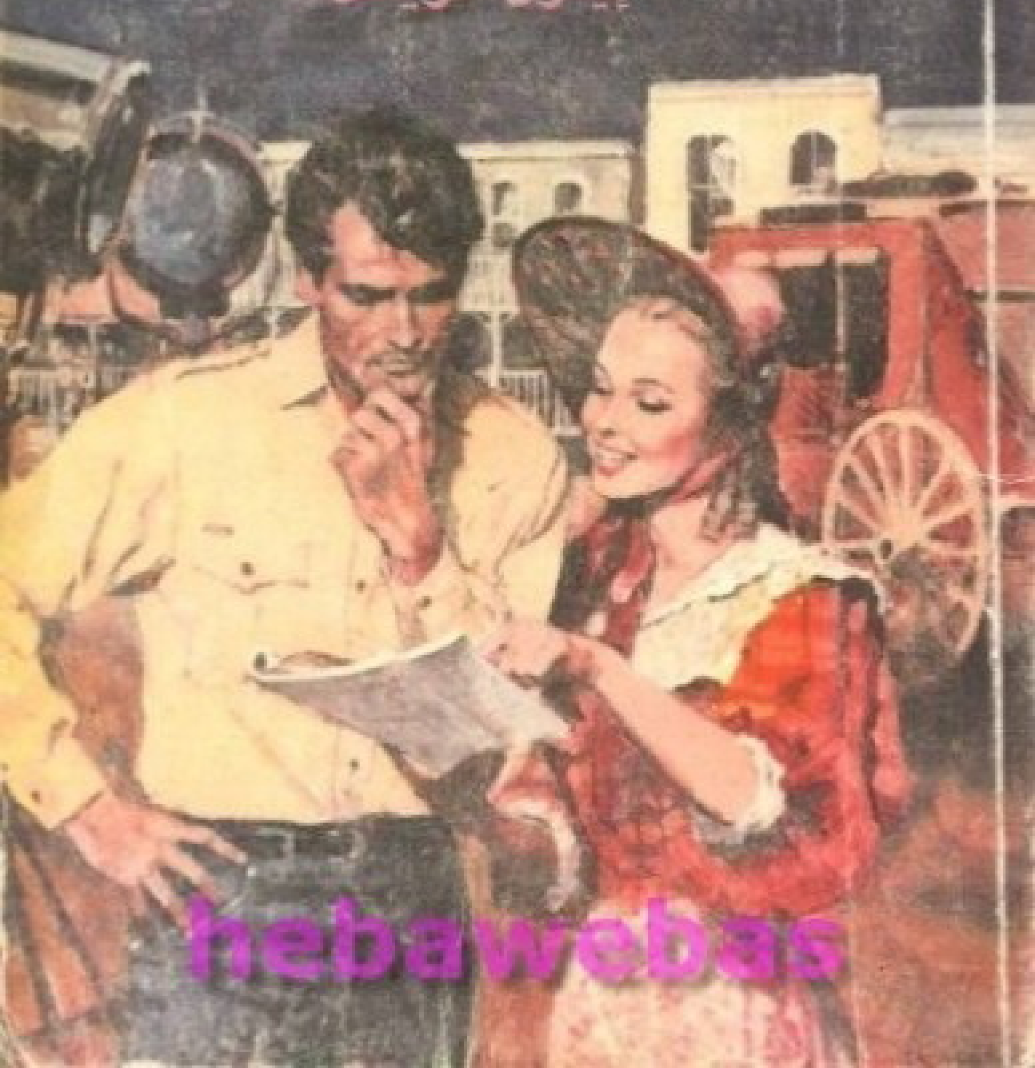

hebawebas

روايات عبير

آفاق بعيدة

إيفون هويتال

كان المحرر السياحي ماكسويل هاربر، (عريس لقطة!) ثرياً، ناجحاً، ذا جاذبية شيطانية وغير مرتبط. نوعاً من الرجال قد تقع في حبه أية امرأة. كانت كيري تعي جداً مدى جاذبيته، ولكنها صممت، بالقدار نفسه، على مقاومتها، فهي لم تكن تبحث عن علاقة عابرة مع رجل ما، وهو أوضح أن لا نية عنده للاستقرار. كل ما أرادته من ماكس هو علاقة عمل ناجحة. ولكن هل يقبل ماكس بذلك؟

liilas.com

«لا، شكراً، يا سيد هاربر.»

«ماكس.» صحح لها برقة. «ينادينيي أصدقائي، ماكس.» تقلصت أصابعها لا إرادياً.

«لقد استخدمتني كصورة، وهذا يضعني في خانة الموظفين، لا في خانة الأصدقاء.» قالت ببرودة وهي تقلب صفحة المجلة، كي تستغل هذه الحركة لتبتعد عنه قليلاً من دون أن يبدو عليها ذلك.

«حتى أعدائي، ينادونني، بماكس.»

hebawebas

الفصل الأول

شعرت كيري نلسون بالضيق، فتذمرت بخفوت وهي تقود سيارتها صوب هوتون، ضاحية جوهانزبورغ الشهيرة.

تضطلع كيري بمهمات متنوعة وممتعة كونها مصوّرة فوتوغرافية حرّة، ولكن في عصر هذا الأحد بالذات كانت تُفضل لو أنها بقيت في البيت تطالع كتاباً مفيداً بدل اضطرارها للخروج في الحرّ الشديد الذي يسود جنوبي أفريقيا في هذا الوقت من السنة.

لقد فتحت نافذة سيارتها البيجو القديمة بقصد إدخال البرودة، ولكن هواء منتصف الصيف كان لاهباً، بحيث اخترق شعرها الأشقر المنسدل على كتفيها ولم يخفف شيئاً من ضيقها. لوت شفتيها بتجهم وانزعاج من لزوجة جسمها المتدثر بفستان أزرق من الحرير الصناعي.

انعطفت على طريق الضاحية وفكّرت بجمود عاطفي بأن هذا الطقس مثالي لحفلة الزفاف التي رتبتها السيدة ستافورد في الحديقة.

لم يكن تصوير الأعراس من اختصاصها. وهذا ما أكدته لأرملة الاقتصادي الثري وليام ستافورد منذ بضعة أسابيع، ولكن كاثلين ستافورد كانت غاية في الاقناع.

قالت تناشدها بصوتها وبعينيها الخضراوين معاً: «لن ترضى ابنتي ماري - جو بأي مصوّر آخر، ولن تتزحزح عن رغبتها هذه، يا آنسة نلسون.»

ورضخت كيري لالتماسها في النهاية، إلا أنها كانت ما تزال في شك من قبولها عندما أوقفت سيارتها الزرقاء بقرب جدار حجري عالٍ في أحد شوارع هوتون المزروع جانبيه بالأشجار.

ولمّا أخرجت حقيبة الكاميرا من المقعد الخلفي سمعت جوسي بوير تخاطبها بسخرية: «بدأت أظن بأنك لن تصلي أبداً.»

أزاحت كيري شعرها عن محيّاها ونظرت إلى ساعتها ثم علّقت ضاحكة وهي تقفل أبواب السيارة: «لقد بكرتُ عشر دقائق عن الموعد.» ولكن ابتسامتها تلاشت حين استدارت وواجهت صديقتها الصحافية.

كان شعر جوسي الأحمر مقصوصاً ويحيط تقاسيمها الجذابة بتسريحة جميلة ولكن وجهها بدا شاحباً جداً تحت نور الشمس الساطع وكانت ابتسامتها هشة وعيناها الخضراوان تلمعان بغرابة. كون كيري تعرفها منذ سنوات عدّة فقد أدركت بأن جوسي تعاني توتراً ناشئاً عن اعتقادها بأنها على وشك إنجاز سبق صحافي.

كانت كاثلين ستافورد قد زودت كيري بقائمة كاملة بأسماء المدعوين إلى الزفاف. فأخذت كيري تُقلّب الأسماء في ذهنها وبصرها ملتحم مع بصر صديقتها المحموم إلاّ أنها أخفقت في اكتشاف الإسم الذي يسبّب توتر جوسي.

سألت بفضول وهي ترفع حقيبة الكاميرا وتركز حمالتها على كتفها: «لمَ كل هذا الانفعال، يا جوسي، فهذا ليس أول حفل زفاف تغطينه وقد كتبتِ حول مئات منها سابقاً، فبماذا يتميز هذا عن سواه؟»

تعمقت ابتسامة جوسي الذابلة وهما تسيران صوب البوّابة الحديدية التي فُتحت على مصراعيها لاستقبال المدعوين، وأجابت: «ما يميزه عن سواه هو أن ماكسويل هاربر سيحضره، وأنا آمل أن أتمكن من إقناعه بإعطاء حديث صحافي.»

«ماكسويل هاربر؟» ردّدت كيري الإسم بلطف وحاولت البحث في طيات ذاكرتها لتتعرف على صاحب هذا الإسم ولكنها فشلت في إيجاد الجواب المنشود.

قالت جوسي ملوّحة يديها بتوتر: «لا تتظاهري بأنك لم تسمعي بالرجل. فأنا أعرف بأن مكتبتك تضم مجموعة كبيرة من مؤلفاته.»

وقفت كيري فجأة، وتحوّلت حيرتها إلى ذهول حين واجهت صديقتها: «إنه ليس م. ج. هاربر، الكاتب الرحالة الشهير ومنتج البرامج المتلفزة عن الرحلات المختلفة؟»

أومأت جوسي وردّدت بانفعال: «أجل، أجل، إنه هو.»

تغلبت كيري على دهشتها بعد لحظة وتابعتا السير في الممر الطويل المرصوف بالحصى ومرتا بالسرادق الأبيض والأزرق الذي نُصب في مرج رحب وسط الحديقة المشمسة والمترامية الأطراف.

كان ماكسويل جوناثان هاربر يمتهن الكتابة حول الأسفار. وكيري معجبة بكتاباته منذ وقت طويل. كان يكتب بمعرفة وإلمام وبأسلوب سهل ووصف حي إلى حدّ جعلها تشعر أحياناً بأنها تعيش تلك الأسفار والمشاهد. لقد أولعت بأعماله بعدما قرأت كتابه الأول فابتاعت مؤلفاته تباعاً وصارت الآن تعتبر هذه المجموعة من أثمن ممتلكاتها.

«ما الذي يدعوك إلى التأكد من أنه سيحضر الزفاف؟»

www.liilas.com

سألت صديقتها وحرارة الشمس تلسع وجهها وذراعيها لدى اقترابهما من مدخل المنزل الفخم المؤلف من طبقتين.

أجابتها جوسي: «لأن ماكسويل هاربر هو شقيق السيدة ستافورد، أي أنه خال العروس. وبما أن والدها متوفٍ فمن الطبيعي أن تطلب من خالها الشهير بأن ينوب عن والدها في تسليمها لعريسها.»

استوعبت كيري هذه المعلومة الجديدة ثم قالت ناظرة إلى صديقتها بسخرية: «أعرف كم أنت دقيقة في ما يتعلق بجمع المعلومات المطلوبة لمواضيعك الصحافية، وبناءً عليه، هل أعتمد على مصادرك الموثوقة وافترض حقاً بأن ماكسويل هاربر وافق على طلب ابنة أخته؟»

«لقد وافق بطبيعة الحال.»

كان في نظرتها بعض التحدي فتيقنت كيري من أن صديقتها استغلتها، وقالت: «إذن، لهذا السبب كنتِ متلهفة للحصول على إذن السيدة ستافورد بأن تكتبي مقالاً حول زفاف ابنتها! لقد أردتِ أن تضمني وجودك هنا لتحاولي الحصول على حديث صحافي مع ماكسويل هاربر.»

«هذا أمر طبيعي.»

وقفت كيري عند أسفل الدرج الرخامي المؤدي إلى مدخل المنزل ولم تقدر أن تخفي استياءها العميق وهي تسألها: «لماذا لم تصارحيني بذلك من قبل؟»

«وهل كنتِ ستساعدينني في هذه المهمة لو أخبرتك؟»

«بالطبع لا.»

«إذن؟ هل أحتاج لقول المزيد؟» وابتسمت بغرورها المعهود.

هزت كيري رأسها باستسلام عاجز، فمن العبث أن تغضب طويلاً من جوسي الصحافية القديرة، ذات الإنجازات الفذّة التي طالما فشل فيها سائر الصحافيين. ولكن كيري كانت مقتنعة بأن صديقتها تحاول الآن بلوغ المستحيل.

قالت تحذرها: «لو كنت مكانك، يا جوسي، لما أملتُ كثيراً في نجاحي بإقناع ماكسويل هاربر بالموافقة على إجراء مقابلة صحافية.» كانتا ترتقيان الدرج إلى المدخل، وتابعت: «أعرف أن بعض الصحافيين اللامعين لاحقوه من بلد إلى آخر عبر العالم، إنما أعرف أيضاً بأنه رفض التحدث إلى أي منهم.»

ردّت جوسي متنهدة: «أجل، أنا واعية لكل هذه الحقائق ولكن عليّ أن أبذل قصارى جهدي. هل تقدرين أن تتصوري كم سيدعم ذلك مهنتي إذا ما وافق على إجراء المقابلة؟»

كان بوسع كيري أن تتصور ذلك وتمنت بحرارة أن تُكافأ جوسي على حماستها وتصميمها، ولكنها كانت قرأت في مجلة ما بأن ماكسويل هاربر يقدّس خصوصيته ويدافع عنها بشراسة متناهية، الأمر الذي جعلها تشك في إمكانية حصول جوسي على هذه المقابلة التي أخفق صحافيون أكثر خبرة منها في الحصول عليها.

ضغطت كيري على جرس الباب وما هي إلا لحظات حتى فتحت خادمة أنيقة، الباب الخشبي الثقيل. ولما أوضحتا لها مهمتهما، دعتهما للدخول. وأحست كيري بأنها لا تقل توتراً عن رفيقتها عندما عبرتا البهو الفسيح المزدان بتماثيل صغيرة من المرمر، ثم ارتقتا الدرج الملتوي والمكسو بالسجاد، وكان الجدار المقابل له مزداناً بلوحات عائلية ومشاهد طبيعية.

وقفت العروس في مخدع واسع من الطبقة الثانية أمام مرآة طويلة ومعها وصيفة تزرر ظهر ثوب زفافها الرائع الذي قدّرت كيري بأنه يكلّف ثروة صغيرة وحيك من الساتان الأبيض المطرز بخرز ثمين ويحضن قوامها بجاذبية ويبرز نعومة كتفيها المسمرتين، وجمال صدرها الناهد وخصرها النحيل.

ما أن انتهت الوصيفة من ربط آخر زرّ حتى ابتعدت ماري - جو ستافورد عن المرآة وواجهتهما. كانت شابة جذابة في بداية العشرينات من عمرها، ذات شعر داكن، وابتسمت بدماثة حين عرّفت كيري وجوسي عن نفسيهما.

علّقت ممازحة: «سرّني دقتكما في المحافظة على المواعيد، وسوف تقدّر أمي ذلك، كونها مقتنعة بأنها ستشيب قبل الأوان اليوم لكثرة ما عانت من مطبات مفاجئة منذ الصباح الباكر.»

شاركتاها الضحك من هذه النادرة العائلية، الأمر الذي خفف التوتر السائد في الغرفة ومكّن كيري من تثبيت يديها حول الكاميرا لتلتقط الصور المطلوبة.

كان وجه ماري - جو ملائماً للتصوير، وذات طبيعة دمثة لينة تبعث على الاعجاب، الأمر الذي أثبت لكيري بأنها تختلف عن معظم العرائس اللواتي ما كنّ ليتحملن وجود مصوّرة فوتوغرافية وصحافية فضولية في مخادعهن وهن يجهزن أنفسهن لأهم يوم في حياتهن. فقد بدت ماري - جو راضية بالامتثال لطلباتهما وهي تضع اللمسات الأخيرة على محياها. كما بدت هادئة وواثقة من نفسها ومشرقة بالسعادة، وللحظة عابرة حسدتها كيري على سعادتها.

كانت إشبينات العروس ثلاث صبايا جذابات يرتدين فساتين ساتانية ضيقة، تتراوح ألوانها بين الورديّ الغامق والزهري الفاتح. دخلن تباعاً إلى غرفة النوم فيما كانت الوصيفة تركّز الطرحة على رأس العروس، وأدخلن معهن جوّاً من الإثارة الملطّفة.

بدأت كيري تستمتع فعلاً بعملها، حين أخذت للعروس وإشبيناتها سلسلة من الصور. لم تشعر بمضي الوقت وتساءلت لاحقاً عن جوسي التي كانت تحوم خلف عدسات الكاميرا حاملةً دفترها وقلمها ونظراتها ثاقبة متفحصة. وتساءلت، هل استمتعت جوسي بالمهمة التي أخذتها على عاتقها، أم أن صبرها قد فرغ بسبب تعجلها لتبدأ السعي في سبيل تلك المقابلة الشائكة؟

كان المدعوون قد وصلوا، إذ سمعن السيارات تصل تباعاً إلى المنزل. وفيما كانت كيري تلتقط آخر صورة في الفيلم دخلت السيدة ستافورد إلى المخدع. كانت تلبس ثوباً أخضر فاتحاً من قماش الدونتيل، أبرز رشاقة قوامها، حيّت كيري وجوسي بابتسامة دافئة وإيماءة لبقة قبل أن تركز اهتمامها على ماري - جو.

خاطبتها وفي يديها رعشة تناقضت مع هدوء قسماتها الجذابة التي أورثتها ابنتها: «آمل أن تكوني جاهزة، فقد وصل السيد أبوت، والمدعوون أخذوا أماكنهم.»

أشارت كيري إلى جوسي فغادرتا الحجرة بهدوء، ولما هبطتا الدرج وصارتا في البهو قالت كيري: «هيا يا جوسي، امضي في مهمتك.»

لم تعارض جوسي بالطبع، بل أن لهفتها للخروج جعلت

كيري تبتسم، حين حملت حقيبتها إلى ركن منزوٍ في البهو الفسيح، وجلست هناك على كرسي منخفض وانهمكت في تبديل الأفلام والعدسات. وقفت أخيراً وكاميرا الفلاش تتدلى من عنقها عندما سمعت باباً يُفتح في الطابق العلوي. ثم تناهت إليها أصوات نسائية منفعلة وخافتة. فابتسمت لنفسها وركزت حمالة الحقيبة على كتفها.

قبل أن تتمكن من المغادرة، فُتح الباب الأمامي فاستدارت لترى رجلاً، داكن اللباس، يدخل إلى البهو. لم تهتم بأن تلقي عليه نظرة أخرى إلا أنه توقف فجأة وحملق بها.

استطاع بذلك أن يستولي على اهتمامها فبادلته النظرة نفسها ولاحظت عرض كتفيه وضمور ردفيه، ولما استقر بصرها ثانية على قسمات وجهه تعرفت عليه فوراً وقفز قلبها بين ضلوعها.

إنه ماكسويل هاربر! وهي كانت ستميز هذا الوجه الأسمر الوسيم في أي مكان، فلقد نُشرت صورته مرة على غلاف أحد كتبه الأولى، ولكثرة ما تمعنت في تلك الصورة باتت تعرف كل زاوية من زوايا محيّاه النحيل ذي الأنف الصقري والفكينَ المربّعين. ولكن مفهومها لتلك الصورة الجامدة التي رأتها على الورق اختلفت بقوة عن مفهومها للرجل الذي تراه الآن أمامها.

كان ماكسويل هاربر في أوائل الثلاثينات من عمره، وبرغم ذلك كان الشيب ظاهراً في شعر فوديه وشعر رأسه البنيّ القصير. وأدركت بأنها كانت تنظر إلى وجه رجل قاسى الأمرّين في حياته، كونه أمضى القسم الأكبر منها يشهد على إراقة الدماء والتدمير في أنحاء مختلفة من العالم، ورأت الآن

بهلع أن عبثية الحروب ومخازيها قد جرحته في العمق وتركت أثراً لا يمحى.

شعرت بوقع حضوره الحسي يؤثر عليها بشكل مقلق، إذ كانت سيماء رجولته القوية ذات طابع مغناطيسي جذبتها إليه ذهنياً إن لم يكن حسياً. حاولت كيري تجاهلها بيد أنها شدّت بعناد على شيء ما في داخلها حتى شعرت، ولأول مرة في حياتها، بتجاوب قوي جعلها تتورد خجلاً.

كانت عيناه الداكنتان تحت حاجبيه المستقيمين متيقظتين لا يفوتهما شيء، ولما تحركت شفتاه أخيراً ليبتسم قليلاً، أدركت كيري بذهول بأنه كان يراقبها بإمعان مركز مساوٍ لمراقبتها إياه.

إلا أنها لم تقدر أن تتأكد من دقة تقييمه لها، إذ كانت منشغلة أن تتغلب على حميمية تجاربها المحرجة. ثم أوشكت أن تهتف بارتياح حين ظهرت كاثلين ستافورد على رأس الدرج وبدأت تنزل عليه متقدمةً العروس وإشبيناتها.

لدى وصول الموكب إلى أرض البهو أدار ماكسويل هاربر ظهره العريض لكيري كي يواجه شقيقته فوجدت الفرصة السانحة للهروب. ولكنها أرغمت نفسها على الخروج بخطوات هادئة مع أن رغبتها في الركض كانت أقوى.

لم يتعد لقاؤهما القصير بضع ثوان إلا أنه كان كافياً ليجعل كيري تدرك بأنه من الخير لها أن تنأى عن طريق ماكسويل في المستقبل كيلا تتورط مع رجل من هذا النوع.

كان المدعوون يجلسون في قسم ظليل من الحديقة حيث ستتم مراسم الزفاف، وكانت نبضات كيري ما تزال تتسارع حين طافت حول المكان واختارت موقعاً مناسباً لتصوير

العروس وهي تعبر الممشى المغطى بالعشب، متأبطة ذراع خالها.

ولكن أين جوسي؟

جالت كيري ببصرها بسرعة على وجوه المدعووين ثم توقفت عن البحث حين سرت غمغمات بين الحضور وعت بأن كاثلين ستافورد قد وصلت لتجلس على المقعد المخصص لها.

تلا ذلك سكوت مترقب ثم ظهرت ماري – جو تحت قوس الورود القرمزية التي بدت مثقلة بالأريج.

هنا نهض السيد أبوت من مكانه واعتلى المنصة وطلب من الجميع أن يقفوا. ثم أقبلت العروس مع إشبيناتها وعبرت الممشى ببطء على إيقاع لحن الزفاف المنبعث من شريط مسجل. كانت كيري قد جهزت الكاميرا ولكن يديها أخذتا في الارتعاش حين واجهت جسم ماكسويل المهيب من خلال زجاج كاشف اللقطة.

قالت في نفسها ركِّزي على العروس يا كيري! ركِّزي على العروس!

بدت قسمات العروس الجذابة متوهجة بالسعادة تحت النقاب الشفاف، عندما اقتربت من عريسها الوسيم. وهنا تغلَّب الجانب المهني على توتر كيري، فثبتت يديها على آلة التصوير. ولكنها تساءلت في ما بعد كيف استطاعت أن تنجز مهمتها برغم الوجود المستمر لصورة ماكسويل هاربر إلى جانب العدسة.

وقفت في ظل شجرة استوائية عتيقة بالقرب من أحد مداخل السرادق العديدة.

كان حفل الاستقبال على أوجه، والمدعوون يجلسون إلى موائد الطعام المزينة، وقد طغى عليهم الجذل. وكان الندلاء ناشطين في تقديم المرطبات وقد وضع أحدهم كأساً في يد كيري وكأنما ليؤنس وحشتها. لم تكن راغبة في الشراب ولكنها رشفت منه بشرود وهي تجيل بصرها في وجوه الضيوف الذين يمثلون نخبة جوهانزبورغ الاجتماعية.

عادت تتساءل عن مكان جوسي، وتمالكت ضيقها بصعوبة، لقد حان وقت انصرافها ولكنها لم تشأ أن تغادر قبل أن تكلم صديقتها.

«آنسة نلسون؟» استدارت وأوشكت أن تدلق الشراب على فستانها حين رأت ماكسويل هاربر يقف على بعد خطوتين منها، وحال انفعالها الشديد دون الإجابة الفورية، فسأل مقترباً منها وفي عينيه شك: «أنت الآنسة كيري نلسون، أليس كذلك؟»

«أجل، أنا هي.» أجابته مثبتةً الكأس بكلتا يديها لئلا يقع.

«هل لي أن أعرفك بنفسي؟ أنا...»

«أعرف من تكون.» قاطعته بسرعة وخرج صوتها الدافئ حاداً بسبب تشنج أعصابها. «أنت ماكسويل جوناثان هاربر، الكاتب الرحالة ومراسل سياسي سابق لإحدى الصحف الأجنبية.»

جفل هو هذه المرة، وارتفع حاجباه الكثيفان فوق عينيه المتفحصتين وعلّق قائلاً: «يبدو أنك واسعة الاطلاع.»

كانت رجولته أشد تأثيراً عن قرب إذ حرّكت فيها تجاوباً لاهباً ولاقت صعوبة في مقاومة رغبتها في الاستدارة والهرب.

www.liilas.com

سمعت نفسها تشرح له مصدر معلوماتها: «لقد نُشرت صورتك على أحد أغلفة كتبك وتحتها ملخص لسيرتك الذاتية.»

كانت عيناه بنيتين دافئتين ومرقشتين بلون ذهبي حول البؤبؤين. ولما ابتسم، تعمقت ثنايا الجلد تحتهما.

سألها بصوت تشوبه السخرية: «هل قرأت ذلك الكتاب أم أن اهتمامك توقف عند صفحاته الأولى؟»

«قرأته بالكامل.» وتعمدت ألا تذكر له بأنها قرأت أيضاً كتبه الثمانية التي اشترتها تباعاً والتي كتبها على مدى ثماني سنوات تقريباً.

لاحظت وجود ندبة صغيرة تحت عينه اليسرى ووجود أخرى على فكّه الأيمن، الأمر الذي ضاعف من جاذبيته ووسامته الخشنة. استطاعت بصعوبة الاحتفاظ بهدوئها الخارجي في حين تنبض عروقها وترتعش مثل طير حبيس في قفص.

تابع يقول بصوته العميق الملطف النبرات: «عساك تأذنين لي بأن أفاجئك بما أعرفه عنك. أنتِ كيري آن نلسون، كنتِ مصوّرة فوتوغرافية في مجلة أزياء محلية قبل أن تبدئي العمل الحر، ولا بدّ من الاقرار بأني شديد الاعجاب بانجازاتك المهنية خلال العامين المنصرمين.»

شعرت باستغراب شديد وتساءلت إن كان ذلك انعكس على وجهها. كان من الطبيعي والمفهوم أن تلمّ به ككاتب شهير ورجل معروف، إنما كيف جمّع هذه المعلومات عنها؟

لكن طبيعتها المرحة أنقذتها فاسترخت عضلات وجهها وقالت بابتسامة ملتوية: «يبدو أنك واسع الاطلاع مثلي.»

«قبل عامين حضرتُ معرضك الفوتوغرافي الأول، وكانت صورتك منشورة على البيان وتحتها ملخص لسيرتك الذاتية.» قال ذلك محاكياً كلمات جوابها له. وكان من الجائز أن تضحك لولا توترها الشديد، وتابع قائلاً: «ومنذ ذاك ووددتُ لو أن أتعرف إليك، ولكن طُرقنا لم تتقاطع لوقت كافٍ يسمح بترتيب لقاء.»

سألته بحذر: «ولماذا أردت لقائي؟»

رد مبتسماً وكأنه استشعر حذرها وأدرك سببه: «لأني معجب بنوعية عملك وأرغب بالتالي في استخدامك كمصوّرة.»

تملكها امتعاض رافض لمجرد التفكير في العمل مع هذا الرجل عن قرب، وهزت رأسها: «لا أظن أني أستطيع...»

«اسمعيني، أرجوك.» تقدم منها بسرعة فاضطرت، برغم طول قامتها، لأن تميل رأسها إلى الوراء كي تواجه نظراته. وتابع يقول: «إني أؤلف كتاباً حول صحراء ناميبيا ولكني ما زلت بحاجة لجمع معلومات معينة، ولذلك سأغادر ويندهوك قريباً. أعتقد أن أبحاثي ستستغرق شهراً من الزمن. وأريدك أن ترافقيني في هذه الرحلة لتلتقطي الصور المطلوبة.»

قالت كي تكسب وقتاً تبحث فيه عن مخرج من هذه الورطة: «ماذا حدث للشاب الذي كان يتولى مهمات التصوير؟»

«دنيس كولي؟» زمّ شفتيه باحتقار قبل أن يتابع: «لقد تزوج قبل عامين، والآن أنجبت زوجته طفلاً فاضطر لإيقاف ترحاله.»

كان مرسوماً على وجهه الوسيم أن فكرة الزواج والانجاب لا تروقه بتاتاً، وشعرت كيري بخيبة. إنه مثل والدها الذي

أدار ظهره للحب والارتباط العائلي سعياً وراء مهنته، وهذا يزيدها تمنعاً عن التورط مع رجل على غرار ماكسويل هاربر. حوّلت بصرها إلى السرادق حيث كان العروسان يتجولان بين المدعوين وفكّرت بأن هاربر سيسبب لها المتاعب، ولقد ذاقت من الألم والخيبة في الماضي ما كفاها وما سيكفيها لسائر حياتها.

عاد يقول بالحاح: «هل لك أن تفكري في قبول هذه المهمة؟»

«يشرفني أن تطلب مني ذلك يا سيد هاربر، ولكني لا أستطيع القبول.» أجابته ببرود ثم وضعت كأسها على صينية كان يحملها نادل، وتوجهت إلى مقعد الحديقة حيث تركت حقيبتها.

كان عليها أن تبتعد عنه لحاجتها إلى التفكير ولكنه لحق بها بعناد مزعج.

قال باصرار: «أود أن أعرف سبب رفضك.»

«لأني مرتبطة بعقود عمل طوال الشهرين المقبلين.»

«سأضاعف أي مبلغ تتقاضينه في شهر.»

استدارت إليه بتوتر وقالت وعيناها تقدحان غضباً: «لم يكن المال أبداً غايتي ومقصدي.»

«ثمة أمر آخر، سأطلب من ناشر كتبي أن يحرر معك عقداً تتقاضين بموجبه نسبةً معينة من حقوق النشر. إن كل ما أطلبه هو أن تفكري بالغاء مهماتك الأخرى كي ترافقيني في هذه الرحلة.»

«آسفة، لا أستطيع ذلك.»

«لم لا؟»

لماذا كل هذا الالحاح من جانبه وهناك العديد من المصوّرين ذوي الكفاءة في جوهانزبورغ؟ لماذا هي بالذات؟

أجابته بصوت متوتر: «أنا لا أعمل بهذه الطريقة، فعندما أقبل مهمة، تصبح ارتباطاً بالنسبة إلي، وليس من عادتي أن أفضل ارتباطاً على آخر.»

قال بسخرية: «هراء! إني أقدم لك فرصة العمر وأنت ترفضينها بسبب وساوس سخيفة؟»

«قد يكون الأمر كذلك، ولكن الخيار يبقى خياري!»

ران عليهما صمت غاضب محرج، لم يعكره سوى أصوات ضحك انبعثت من السرادق، وبادرت كيري إلى إشاحة بصرها تجنباً لنظراته الثاقبة المتفحصة المنبعثة من عينيه الداكنتين المثيرتين.

خرجت جوسي في تلك اللحظة من السرادق وأخذت تنظر يمنة ويسرة وكأنما تبحث عن شخص ما، فاستغلت كيري هذه الفرصة لتهرب. التقطت حقيبة الكاميرا وعلّقت حمالتها على كتفها، ولكن حينما استدارت وجدت ماكسويل هاربر يراقبها بنظرات تقييمية.

استطاعت أن تتصوّر أفكاره، فهو، على الأرجح يعتبرها عديمة الطموح أو مجنونة إلى حدّ ما، لتضييعها هذه الفرصة المثيرة والمربحة في آن. ولكن لهفتها للفرار منه كانت أقوى من اهتمامها بمعرفة كيف سيفسر سبب رفضها.

«بالإذن منك، يجب أن أنصرف.»

«لحظة من فضلك.» قبض بلطف وحزم على ذراعها فاشتعلت في جهازها العصبي آلاف الشرارات المكهربة. ثم

www.liilas.com

أرخى ذراعها بالفجائية ذاتها، قاطعاً بذلك التيار الذي شلّها عن الحركة، وأخرج بطاقة من جيب سترته الأنيقة والمحاكة بعناية، وقال: «اتصلي بي هاتفياً عندما تغيرين رأيك.»

لم يقل «إذا» غيّرت رأيك بل عندما! يا للغرور! عجزت عن الكلام حين دار على عقبيه ومضى لينضم إلى حفل الاستقبال. حملقت في البطاقة التي دسّها في يدها ورغبت في رميها بعيداً ولكنها وضعتها في جيب الحقيبة ثم سارت إلى حيث تقف جوسي.

بادرتها بالقول، ناظرةً إليها بفضول مركز: «رأيتك تكلمين ماكسويل هاربر، ولكنكما افترقتما قبل أن أتقدم وأطلب منك أن تعرفيني إليه. فهل تُراك توسطت لي معه؟»

ردّت بانفعال على غير عادتها، كي تُنفّس عن توترها العصبي: «ألم نتفق منذ وقت طويل على ألا نتدخل في أعمال بعضنا البعض؟»

بدت الدهشة على جوسي ولكنها سرعان ما ابتسمت وتأبطت ذراع صديقتها قائلة: «لك الحق في تأنيبي. سأرافقك إلى حيث أوقفت سيارتك، وفي الطريق آمل أن تُشبعي فضولي قليلاً وتطلعيني على موضوع جدالكما الحاد أنت وماكسويل هاربر.»

أحست كيري بزوال توترها وهما تسلكان طريق المرج القصيرة إلى البوّابة الحديدية. لم يفتها أن جوسي كانت تنتظر كلامها بصبر نادر، إلا أنها التزمت الصمت حتى وضعت حقيبتها على مقعد السيارة الخلفي وإذ ذاك استطاعت أن تروي ما حدث بينها وبين الرجل الذي أعجبت بكتاباته منذ سنوات طويلة.

«لقد طلب مني أن أفكر في السفر معه إلى ناميبيا لألتقط الصور التي سيتضمنها كتابه الجديد.» وتساءلت لماذا بدا صوتها فجأة مثل همسة مذعورة.

أما جوسي فشهقت بانفعال واستبد بها الفضول حين جلست كيري على مقعد القيادة وأدخلت المفتاح في ثقب الإشعال، فسألتها بصبر نافد ويداها متقلصتان على حافة الباب: «وهل ستفعلين؟ أجيبيني بحق السماء! هل قبلت المهمة؟»

«كلا، لقد رفضتها.»

تراخت يدا جوسي وفغرت فاها ثم زعقت: «هل أنت مجنونة؟»

«ربما.» أجابتها باقتضاب ثم أنزلت زجاج النافذة وصفقت الباب.

مجنونة؟ غير منطقية؟ لا عاقلة؟ لم تقدر كيري أن تقرر أياً من هذه الصفات تلائمها أكثر. فتفكيرها الآن مشوش. ولكنها متأكدة تماماً من أمر واحد لا غير، هو أنها سوف توقع نفسها في مشكلة عويصة إذا ما اضطلعت بالمهمة التي عرضها عليها هاربر.

أدارت مفتاح السيارة فهدر المحرك معيداً جوسي إلى الواقع، وسألت صديقتها: «هل لي أن أمر عليك في طريق عودتي إلى البيت كي نشرب قهوة ونثرثر؟»

كانت قسمات كيري مرتاحة وردت مبتسمة: «اعتبري نفسك مدعوة.»

www.liilas.com

الفصل الثاني

كان البيت الريفي الطابع في ضاحية برايانستون في حالة يرثى لها من جراء عدم الصيانة، عندما رأته كيري لأول مرة منذ خمس سنوات، ولكنه لقي هوى في نفسها فابتاعته بالمال الذي ورثته عن أمها.

كان السطح بحاجة لاصلاحات شاملة، كما جددت شبكة أنابيب المياه وأسلاك الكهرباء فاستنزفت هذه التكاليف إرثها. ثم غيّرت أقفال الأبواب بأخرى جديدة لتأمين الحماية وصرفت على ذلك مدخراتها المتواضعة أصلاً مما اضطرها في النتيجة حينذاك، لإيقاف سائر الإصلاحات المطلوبة.

لقد استغرق إتمام التجديدات أربع سنوات طويلة وتطلب كل قرش كان في حوزتها، وقد أثثت البيت بمفروشات فاتحة الألوان وغير معرّقة انطباعاً بالسعة، إذ كانت الغرف صغيرة. لقد استغرق ذلك وقتاً وكلّف مالاً وجهداً ولكنها لم تندم قط، فهذا بيتها الآن وملاذها والقاعدة التي تعمل منها، وهي تحبه.

أيقظها صفير الابريق الكهربائي من تأملاتها. كانت قد استحمت وارتدت روباً قطنياً خفيفاً بعد عودتها عصراً من منزل آل ستافورد، ولكن شعرها كان ما يزال معقوصاً فوق رأسها وقدماها حافيتين عندما قفزت من مقعدها المريح وهرعت إلى مطبخها الصغير.

قطعت التيار الكهربائي عن الابريق ونظرت عبر النافذة

إلى الشمس الساطعة فوق سطوح البيوت. كانت تنتظر زيارة جوسي ولكنها تأخرت وتساءلت كيري عن السبب!

رحّبت كيري لحظتئذ برنين الجرس الذي قطع عليها أفكارها الوجلة، ولكن التوتر الناشىء عن تلك الأفكار رافقها وهي تغادر المطبخ لتفتح الباب لزائرتها، وقالت تعنف نفسها: «لا تذعري... إنها جوسي» ولما نظرت من ثقب الباب تأكد لها ذلك.

«أنا بحاجة ماسة لفنجان من القهوة!» هتفت جوسي حالما ولجت الردهة الصغيرة المحتوية فقط، على منضدة هاتف نصبية، ولوحة فوتوغرافية مكبّرة لثلاثة خيّالة تبدو خلفهم جبال الدراكنزبرغ المعممة بالثلوج. «هل تأخرت كثيراً؟»

«بل وصلت في الوقت المناسب.»

أقفلت الباب بعد دخولها وسارت أمامها إلى المطبخ حيث علّقت جوسي حزام حقيبتها على ظهر كرسي، ثم تهالكت عليه فيما وضعت كيري مسحوق قهوة فورية في فنجانين.

لما جلستا أخيراً إلى الطاولة المستديرة قالت جوسي: «أنا مرهقة. كان يجب أن أذهب رأساً إلى بيتي إنما خطر لي بأنه قد يهمك أن تعلمي بأني تبادلت بضع كلمات مع ماكسويل هاربر.»

كانت كيري تساءلت عن ذلك. وسألت الآن متظاهرة بعدم الاكتراث: «وهل حالفك الحظ؟»

«أوه، إنه مهذب وساحر، ولكنه صلب كالحجر في ما يتعلق باعطاء حديث.» رشفت ثانية من فنجانها، وتابعت وهي تتفرس في خوان الطاولة الأصفر: «قد يعتقد ماكسويل هاربر بأنه تخلّص مني نهائياً، ولكني مصممة على المحاولة من جديد.»

www.liilas.com

«هل من الحكمة أن تلاحقيه؟»

ردت جوسي ضاحكة: «قد لا أكون حكيمة إنما سأكون غبية إن لم أجازف.»

هنا تراجعت كيري ذهنياً، فهذا ليس حقلها، ولا يحق لها أن تتدخل. وعلّقت بهدوء: «أحسبك تعلمين ما تفعلين.»

ران صمت قصير ثم أعلنت جوسي قائلة: «حصلتُ على خبر صغير قد يهمك. انفردت بالعروس للحظات قبل أن تغادر في رحلة شهر العسل، وقالت في غمرة انفعالها بأن خالها وافق على تسليمها لعريسها بشرط أن تستخدمك أنت بالذات لأخذ صور الزفاف. وهذا يوحي إليّ بأنه أراد إيجاد فرصة للتعرف إليك، فما رأيك؟»

شعرت كيري بتوتر غريب يقلص أحشاءها. من الواضح أن ماكسويل هاربر لا يتورع عن فعل أي شيء كي يحصل على ما يريد. وأجابت أخيراً: «لم تكن لياقة منه أن يضع شرطاً كهذا.»

«لكن ذلك زوّده بفرصة لقائك. ومن باب الاهتمام لماذا لا تقبلين المهمة التي عرضها عليك؟»

كان الظلام قد بدأ يلفّ المطبخ فنهضت كيري بسرعة وأضاءت النور وكسبت بذلك وقتاً لإيجاد عذر ملائم يشبع فضول جوسي ويضع حداً لنظراتها الثاقبة المتفحصة.

جلست ثانية على كرسيها وقالت وهي مشيحة بنظرها عن جوسي: «لا تروقني فكرة الترحال لشهر كامل في الصحراء.»

«ماذا حدث فجأة لروح المغامرة عندك، يا كيري؟ هل تتوقعين مني أن أصدّق بأنك فقدتها؟»

«لديّ ارتباطات في جوهانزبرغ.»

ردت جوسي بصوت مزدرٍ: «هذا عذر واهٍ! فأنا أعرف جيداً بأنك طالما ألغيت ارتباطاتك أو أجلتها كي تتسكعي في البراري مع آلة التصوير.»

لم تستطع كيري أن تدحض هذه الحقيقة، أو أن تنكر بأنها كانت تتحين الفرص لتستكشف صحراء ناميبيا. ولو أن العرض قُدّم لها من شخص آخر لكانت قبلته بشوق ولهفة ولكن أن يأتي من...

«العلة تكمن في ماكسويل هاربر، أليس كذلك، يا كيري؟»

كان بياناً لا سؤالاً، فاجفلت كيري وعجزت عن مواربة الحقيقة عندما التقى بصرها ببصر جوسي المتخفض. هتفت جوسي وهي تستقيم في جلستها وتحدق باستغراب إلى صديقتها: «لقد أصبتُ الهدف! أعتقد أن شيئاً ما حول ذلك الرجل المتوحش الجذاب قد نفذ إلى مشاعرك، وأعتقد أنك خائفة.»

«هذه سخافة!» هتفت كيري باحتجاج مذعور وهي تقفز واقفة من على حافة الكرسي.

«لكنها الحقيقة، أليس كذلك؟»

وضعت كيري فنجانها الفارغ في المجلى ووقفت وظهرها لجوسي، تحاول التخلص من الحرارة التي تدفقت إلى وجنتيها. كانت تكره الكذب وتدرك عبثيته، كما وعت بأن جوسي باتت تدرك الكثير.

تنهدت بضيق ثم واجهت صديقتها وقالت تعترف: «حسناً، ثمة شيء فيه يجذبني، وأقرّ بأني خائفة إلى حدّ يجعلني أحجم عن استغلال هذه الفرصة لأسير غور عواطفي. هل يقنعك هذا الجواب؟»

«ما عدتِ طفلة، يا كيري، فأنت في السادسة والعشرين ولا

www.liilas.com

يسعك أن تُمضي سائر أيام حياتك في الهرب من كل رجل تنجذبين إليه بسبب من علاقة سابقة.»

غزت أساريرها الحساسة نظرة امتعاض عابرة من ذكرى بيتر فوريستر، وقالت وهي تهز كتفيها: «إنني أتوخى الحذر، ليس إلا.»

قالت جوسي تجادلها: «الحذر شيء وإبعاد الرجال عن حياتك شيء آخر.»

«أنا لا أبعد الرجال عن حياتي.»

تحدتها جوسي قائلة بسخرية: «حقاً؟ متى كانت آخر مرة خرجت فيها مع رجل؟»

«أنا... حسناً، أنا...»

هتفت جوسي بانتصار: «لا تقدرين على أن تتذكري، أليس كذلك؟»

«حسناً، لقد نسيت، ولكني أخاف أن أجرح ثانية.»

«ومن منّا لا يخاف ذلك؟» قالت متشدقة ونهضت واقفة. ولكن حتى في كعبها العالي كانت أقصر قامة من كيري الحافية القدمين.

«شكراً على تذكيري بأني مثل سائر البشر.» ردت كيري ببرود ولكنها تذكرت مُرغمة بأن حياة جوسي لم تخل أيضاً من عذاب القلب.

ابتسمت جوسي بأسى وأعلنت وهي تعلق حقيبتها على كتفها: «بوسعك أن تكوني مُزعجة أحياناً! ولكنك أيضاً أفضل صديقة عرفتها وأود أن أحافظ على صداقتنا.»

«وأنا أيضاً أود ذلك.» استرخت وابتسمت بدورها ثم تأبطت ذراع رفيقتها وشيعتها إلى الباب.

كانت صداماتهما الكلامية قليلة وسرعان ما تتصالحان، فكلتاهما عرفت الأخرى جيداً وصداقتهما تعود إلى سنوات طويلة مما يجعلهما تتغاضيان عمّا بينهما من فوارق غير قابلة للتغيير.

شعرت كيري بقلق فكري بعد انصراف جوسي. تناولت عشاءً خفيفاً وغسلت الصحون ولكن جوسي كانت كشفت عن ندبة قديمة في نفسها، فلم تملك إلا أن تستذكر تلك الحادثة المؤلمة الماضية.

كانت آنذاك في سن الحادية والعشرين وقد رتبت مجلة الأزياء التي تعمل فيها عرضاً للأزياء، تحظى فيه العارضة الفائزة برحلة مجانية إلى أوروبا، إضافة إلى اشتراكها بدورة تدريبية في إحدى دور الأزياء الباريسية الشهيرة لتطوير مهنتها كعارضة.

كانت وكالة السفر المعنية قد أرسلت مندوباً من أحد فروعها العديدة في المدينة كي يتولى ترتيبات السفر، وهكذا تعرفت كيري إلى بيتر فوريستر ذلك الشاب الساحر الأشقر الشعر الذي أدار عقول جميع الفتيات.

بدأت علاقتهما بدعوة إلى الغداء، وفي غضون أشهر معدودة وصلت إلى المرحلة التي اعتقدت كيري خلالها بأنه سيطلب إليها أن تتزوجه.

كانت تحبه حباً أعمى فتجاهلت بالتالي الدلائل الواضحة على وجود خلل ما في علاقتهما، مثال ذلك، إلغاؤه ترتيبات العشاء في أمسيات عدّة، واعتذاره عن عدم استطاعته قضاء نهايات أسبوع عديدة معها لاضطراره إلى أسفار عمل.

دام ذلك شهوراً، حتى صباح يوم مشؤوم عندما حملها

www.liilas.com

عملها إلى مكان قريب من مكتب بيتر، الذي كان أصرّ على ألاّ تزوره في المكتب، لأن رؤساءه لا يرحبون بزيارات الأهل والأصدقاء للموظفين خلال ساعات العمل. ولكن في ذلك الصباح بالذات، وكان قد انقطع منذ أربعة أيام عن رؤيتها والاتصال بها، تجاهلت تحذيره على الرغم منها.

تلقت صدمتها الأولى لدى اكتشافها بأن بيتر هو المسؤول عن الوكالة وليس رجلاً آخر كما أوهمها. ولكن بسبب ثقتها وسذاجتها آنذاك لم تجد ضيراً في التغاضي عن هذه الكذبة. إلا أن الصدمة الثانية قلَبت منظورها السابق رأساً على عقب، وذلك حين رأت على مكتبه صورة زوجته وأولاده.

لقد حاول التظاهر بالغضب ليخرج من المأزق. ولكن كيري استطاعت أخيراً أن تراه على حقيقته وأن ترى خداعه ونذالته. لقد ناسبه أن يخون عهده لزوجته وعائلته ولم يشأ في الوقت ذاته أن يرتبط بزوجة أخرى.

لم تره بعد ذلك، ولكن شهوراً مضت قبل أن تتغلب على جرح تلك التجربة التي أوشكت أن تُفقدها كرامتها واحترامها لنفسها. بعد عام سمعت صدفة بأن بيتر طلب نقله إلى مدينة الكيب تاون وأن زوجته أنجبت طفلاً آخر. فتذكرت كيري بتهكم لاذع أحاديثه ووعوده الكاذبة بتطليق زوجته! بعد ذلك اندمل جرحها بسرعة، إلا أن ثقتها في الرجال بقيت مزعزعة.

والآن ظهر ماكسويل هاربر في حياتها.

لا! لا! لا تريد أن تفكر فيه!

لكي تهرب من أفكارها، لاذت بحجرة التحميض المعتمة

وأخذت تتفحص الأفلام التي علّقتها صباحاً على الحبل كي تجف، ولكنها أدركت لحظتئذ بأنه لا جدوى من محاولة الاختباء عن الحقيقة.

إن معرفتها الدقيقة لصورة ماكسويل هاربر التي نُشرت على غلاف أحد كتبه لم تهيئها لصدمة لقائه شخصياً ولا للتجاوب الحسي الذي أيقظه حضوره فيها.

أسندت ظهرها إلى الخزانة وأغمضت عينيها. لقد أخافتها حدّة مشاعرها آنذاك، وما يزال مجرد التفكير بذلك يخيفها.

لم تكن ساذجة إلى الحد الذي يجعلها تتصور بأنها ستتمكن من قضاء شهر مع رجل على غرار ماكسويل هاربر من دون أن يحصل على مبتغاه. فجاذبيته كانت أقوى من أن تتجاهلها أو تقاومها، وعدم خبرتها ستضعفها أكثر وتجعل منها فريسة سهلة.

فريسة سهلة؟ أجفلتها أفكارها وتساءلت، هل هذا ما ستكونه؟ والجواب الذي لمع في ذهنها قوّى عزيمتها على رفض المهمة. كانت تعتقد بأن درعها حصينة لا يمكن اختراقها ولكن ماكسويل هاربر أثبت خطأ اعتقادها.

لم تنم جيداً تلك الليلة، وهطل المطر بغزارة صبيحة اليوم التالي، فاضطرت لأن تلغي رحلتها المقررة إلى الريف. أمضت النهار في البيت ولكنها عجزت عن الاسترخاء، وكانت كلما رنّ جرس الهاتف تخشى أن ترفع السماعة وتسمع صوت ماكسويل هاربر.

لكن توقعها ضَرْبٌ من السخف، فلماذا سيخابرها وقد

أعطته جواباً رافضاً ونهائياً، ولا بد أنه يعرف بأن أي شيء سيقوله لن يجعلها تغير رأيها. إذن، ليس هناك من سبب لأن تشعر بالقلق، أو بالذنب، إنها عاملة مستقلة ولا أحد يستطيع إرغامها على قبول مهمة لا تريدها، ولا حتى ماكسويل هاربر.

دخلت إلى المطبخ لتصنع قهوة ولكن الأفكار المقلقة طاردتها.

اللعنة! لماذا لا تستطيع نسيان أمره؟

كان عملها ثقيلاً ومتواصلاً في اليوم التالي فلم تجد الوقت لتفكر بأي شيء آخر. ولمّا خرجت أخيراً من غرفة التحميض بعيد الرابعة بعد الظهر، حال إرهاقها الشديد دون اهتمامها بالقلق الذي ساورها في عطلة الأسبوع.

ولجت المطبخ وشرعت تغلي ماءً لتصنع قهوة وقد شعرت بحاجتها الماسة إلى إراحة قدميها. وبعد بضع دقائق كانت تتكور على مقعدها المفضل، ترشف القهوة وتستمع إلى المخابرات الهاتفية المسجلة التي وردت في غيابها.

المخابرة الأولى كانت من زميلة جامعية قديمة دعتها فيها لحضور حفل عشاء للخريجين. والثانية كانت بشكل استغاثة من كالفن ماكالام، مساعد رئيس التحرير في مجلة الأزياء التي عملت فيها سابقاً.

أخذت تستمع إلى صوته وهو يقول بلكنته الاسكتلندية التي تشتد وضوحاً في حالات غضبه: «لقد أوقعنا أحد الأغبياء في ورطة حرجة، يا عزيزتي، ولذا نحن في حاجة ماسة إلى مصوِّرة أزياء غداً صباحاً في مركز الكارلتون. لن أغادر المكتب حتى أتلقى جوابك، وأسأل الله أن تتمكني من مساعدتنا.»

ابتسمت كيري لدى انتهاء المخابرة ولكن ابتسامتها خبت عندما سمعت المخابرة الثالثة المنفعلة: «ألو، كيري... أنا جوسي. لقد تناولت طعام الغداء مع ماكسويل هاربر وأكاد لا أصدق حسن طالعي! سأخابرك لاحقاً لأعلمك بالتفاصيل.»

عاد توترها السابق يطعنها بحدّة ويترك في أعقابه شعوراً يقارب الخوف. فقد بدا، أنه من غير المحتمل أن يستسلم هاربر بسهولة بعدما رفض بعناد ولسنوات طويلة أن يسمح بكشف حياته الخاصة للرأي العام.

تعرقت كفّاها بفعل التوتر وقلّصت أصابعها حول فنجان القهوة. هل لديها سبب وجيه لتخشى اللقاء الذي تمَّ بين جوسي وماكسويل هاربر؟ أم أنها تستخف بقوى جوسي الاقناعية؟

أزاحت هذه الأفكار جانباً وحاولت التركيز على ما تبقى من تسجيلات الشريط ولكن ما هي إلاّ دقائق حتى سمعت مخابرة جوسي الثانية فعادت المشكلة إلى واجهة ذهنها.

«ألو، كيري، أنا جوسي أخابر من جديد. يجب أن أراك مساءً... لأمر طارىء. سأكون عندك في السابعة. إلى اللقاء!»

كانت كيري أثناء استماعها إلى المخابرة تتصرف من دون وعي، إذ أنزلت قدميها إلى الأرض وجلست على حافة المقعد لدى انتهاء الرسالة. لقد أكدت جوسي على ضرورة لقائهما مساءً ولكن كيري كشفت شيئاً أكثر من مجرد الإلحاح في صوت صديقتها. هل كان تلهفاً؟ انضغاطاً؟ لم تستطع أن تتأكد، إنما بدأ يتكون لديها شك كريه بأن الأمر يتعلق بها شخصياً.

أنّبت نفسها بغضب وهي تنهض واقفة. كفّي عن ذلك! فقد

www.liilas.com

بدأت تتصرفين بتوتر. هناك أمور أكثر أهمية يجب أن تنجزيها، بدل أن تجلسي هنا وهناك، وتنسجي مشكلات وهمية، قررت فيما هي تجفف كفيها اللزجتين بوسط تنورتها وسارت بحزم إلى الردهة الصغيرة.

راجعت مفكرتها اليومية الموضوعة على منضدة الهاتف، ووجدت أن بوسعها تأجيل مواعيدها الصباحية كي تلبي مطلب كالفن ماكالام. اتصلت به على الفور وأخذت منه تفاصيل المهمة.

ردت على أصحاب المخابرات المسجّلة الأخرى قبل أن تدخل إلى المطبخ.

كانت تستمتع بالطهي عادة، أما الآن وأعصابها مشدودة على هذا النحو، فقد اكتفت بتحضير سلطة بسيطة ووضعت في الفرن شريحة اللحم التي تبقت من اليوم السابق قبل أن تستحم وتبدل ثيابها.

اختارت فستاناً قطنياً أبيض ذا حزام أخضر وأزرق، وكان مصمماً للباس غير الرسمي إلا أنه بدا على جسمها النحيل والطويل في غاية الأناقة. أما تنورة الفستان المتوسطة الطول فتماوجت برشاقة حول ردفيها وساقيها الجميلة. ثم سرحت شعرها حتى اكتسب لمعاناً فضياً، ووضعت ماكياجاً خفيفاً قبل أن تنتعل صندلاً أبيض منخفض الكعب. ابتسمت لنفسها حين غادرت مخدعها الأبيض والوردي وجلست في المطبخ تتناول عشاءها بمفردها. لم تدر ماذا يخبيء لها المساء، ولكنها لن تدع ذلك يوهن عزيمتها.

كانت فكرة شجاعة، ولكنها سرعان ما فقدت سيطرتها عليها.

• • •

أثناء تناول الطعام شاهدت أخبار السادسة على شاشة تلفازها النقّال ثم تركت الجهاز شغّالاً كوسيلة للتلهي ريثما غسلت الصحون ومسحت الخزائن. ولما حسبت الوقت، أدركت أنه كان لديها أكثر من ساعتين لتتخلص من مخاوفها التي لم تجد لها مبررات وجيهة، ولكن هدوءها كان مجرد قشرة خارجية عندما وصلت جوسي بُعيد السابعة مساء.

لاحظت كيري فوراً بطاقة الأمن البلاستيكية المثبتة على الياقة العريضة فوق بلوزة جوسي فأدركت بأنها قدمت مباشرة من مكان عملها. بدا وجهها رمادياً في ضوء الردهة الخافت وكانت كتفاها متهدلتين وكأنها تحمل عبئاً ثقيلاً، لا يحتمله جسمها الأنثوي الضئيل.

«تبدين مرهقة يا جوسي.» علقت كيري وهي تتقدمها إلى غرفة الجلوس حيث كانت قد أخفضت الأضواء لتشيع جواً مسترخياً.

«أنا بحاجة إلى شراب منعش.» ثم تأوهت وتهالكت على الأريكة ومدّت ساقيها أمامها. «ألديك شيء من شراب الورد؟»

«أظن ذلك.» ثار فضول كيري، ولكنها أحجمت عن طرح أسئلتها الحارقة ودارت حول الأريكة لتصل إلى مكان الخزانة القديمة التي ورثتها عن أمها. فتحت أحد أبوابها وجثمت على الأرض لتنظر داخلها. «أجل، لديّ زجاجة منه.»

«سأكون شاكرة إذا أضفت ثلجاً إلى الشراب.»

مضت كيري إلى المطبخ لتحضر الشراب المطلوب، وهناك أفلت ذهنها من اللجام الذي ما انفك يكبحه منذ عصر ذلك اليوم. لا ريب أن ماكسويل هاربر له ضلع في هذه القضية، بل

هي متأكدة من ذلك كتأكدها من أن الشمس سوف تبزغ في الصباح التالي. أما طبيعة تورطه فظلت لغزاً بالنسبة إليها، إنما انتابها شعور بأنها ستحصل سريعاً على الجواب.

شعرت بالتوتر يتلولب في كيانها ولم تستغرب ارتعاش يديها وهي تقدم الكوب لجوسي. جلست على ذراع الأريكة وراقبت صديقتها بصمت حين جرعت جرعتين متتاليتين ثم تهالكت على الوسائد بوجه متجهم.

«ما الخطب، يا جوسي؟» سألت بشيء من الحدة، فنظرت إليها الفتاة بسرعة ثم تفرست في الكوب مقطبة الجبين.

«لديّ مشكلة.»

ردت كيري بصبر نافد: «لقد استنتجت ذلك. لماذا إذن لا تطلعيني عليها؟»

تنهدت جوسي وقالت وهي تدير الكأس بيدها فيرى التمع على جوانبها الزجاجية: «هذا جزء من المشكلة، فأنا لا أعرف كيف أخبرك.»

«أطلقي الكلام جزافاً، مثلما تفعلين دائماً.»

«حسناً، لقد قام ماكسويل هاربر ببعض التحريات عنّا، وهو يعتقد على ما يبدو بأنه يستطيع استعمال صداقتنا المتينة كوسيلة ضغط للحصول على ما يريد. فقد قال بأنه سيوافق على إجراء مقابلة صحافية إذا استطعتُ اقناعكِ بقبول المهمة التي عرضها عليك.»

هنا انجلى اللغز لكيري، فانفجرت غاضبة وهتفت وهي تذرع أرض الغرفة بحنق: «هذا ظلم! هذا ظلم لعين!»

«أظن أن الأمر سيّان لديه، سواء اعتمد وسائل الاقناع العادلة أم الشنيعة، فهو يريدك أنت بالذات لهذه المهمة وهو

مصمم على استخدامك.» حدّقت جوسي في كأسها الفارغة ثم قالت وهي تنهض واقفة: «بالإذن منك، ساصب لنفسي كوباً آخر من الشراب.»

كيف جرؤ على ذلك؟ تساءلت كيري وقلّصت يديها على جنبيها بغضب شابه اليأس. بدأت تشعر بذعر، اعمى بصرها مؤقتاً فلم تر جوسي تغادر الغرفة وتعود بكوب آخر من الشراب.

رشفت جوسي شراب الورد المنعش، ونزعت حذاءها وجلست باسترخاء على الأريكة ثم رفعت بصرها وواجهت، لأول مرة ذلك المساء، نظرة كيري الثابتة.

قالت جوسي بهدوء مجيبةً السؤال الصامت في عيني ضيفتها: «أخبرته بأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، فإما أن يمنحني المقابلة التي أنا آمل بها أو أن يرفض ذلك.»

«وكيف كان رد فعله؟»

«قال إن الأهلية وحسن الطالع يسيران جنباً إلى جنب، وإنه توقع أن يكون لديّ من الذكاء ما يكفي لأدرك هذه الحقيقة منذ وقت طويل. وقد فهمت قصده تماماً فهو لجأ إلى وسيلة إقناعية أكثر دهاء، وذلك بتذكيري بأن أهليتي الصحافية لن تكفي لنجاحي ما لم أستغل الفرص الجيدة التي تُلقى في حضني.» ثم اتقدت عيناها ببريق أخضر غاضب وتابعت: «دعينا نرسله إلى الجحيم، يا كيري!»

كان ذلك ما ترغبه كيري أيضاً، ولكن قسمات ماكسويل القاسية بدأت تتجسد في ذهنها، فعادت تنظر بعين العطف إلى ندوب الصراع والمعاناة المحفورة على تقاسيم وجهه. غمغمت، تعبّر عن أفكارها بخفوت شديد: «أعتقد أنه أرسل إلى الجحيم من قبل، وعاد منه.»

«ماذا؟ ماذا قلت؟»

أخمدت كيري رغبة فجائية بأن تطلق ضحكة هستيرية وأجابت: «لا شيء مهماً. إنها مجرد ملاحظة سخيفة.»

«ماذا سنفعل بشأن ماكسويل هاربر؟» سألت جوسي بصوت متعب واهن، فخطر لكيري أنها قد تكون خائرة من الجوع ورجحت بأنها لم تأكل شيئاً منذ وجبة الغداء فقالت لها: «هيا معي إلى المطبخ فأنت بحاجة للطعام. وبعد ذلك نناقش الموضوع.»

«وهل هناك موضوع يستحق الكلام؟» سألت بنزق وجدل، ولكنها لم تقاوم حين قادتها كيري إلى المطبخ، وتابعت تقول: «فليذهب ماكسويل هاربر إلى الشيطان! فأمره ما عاد يهمني، ولا أريد هذه المقابلة المنتنة!»

علقت كيري بحدة وهي تزيح لها الكرسي لتجلس: «بل تريدينها! فأنا أعرف كم تلهفتِ إليها، وأنت تعرفين ذلك وماكسويل هاربر يعرف أيضاً! لقد وضعنا في مركز حرج يتعذر التقدم أو التراجع فيه، وأخاله يجلس الآن مرتاحاً، يتصور باستمتاع كيف نتخبط ونتلوى لنخرج من المأزق.»

«إنه يضغط على صداقتنا ليحصل على غايته.»

«بالضبط.» ثم ضغطت على زر الابريق الكهربائي وتابعت: «لديّ شعور محدد بأنه وضعنا على المحك، وهذا ما سوف نناقشه بصورة خاصة. أما الآن، فاقترح أن تكفي عن الكلام حتى تملأي معدتك.»

سلمت جوسي أمر قيادها لكيري التي هيأت طبقاً من السلطة الطازجة وسخّنت ما تبقى من اليخنة، وقد خفف العمل

بعضاً من توترها وغضبها إلا أنه كان عليها أن تواجه الحقيقة في نهاية المطاف.

«أنا لست جائعة.» أعلنت جوسي بتنمر، ولكن بعد نصف ساعة كانت أكلت كل شيء هيأته كيري لها. وفيما كانت تشرب فنجان القهوة الثالث بادرت إلى مناقشة المشكلة الماثلة في ذهنيهما، فقالت: «لا أريدك أن تقبلي مهمة لا تريدينها يا كيري.»

رنت كيري بهدوء لم يَخلُ من بعض التلهف الداخلي: «وأنا لا أريدك أن تضيّعي فرصة حديثك الصحافي مع ماكسويل هاربر.»

«إن صداقتنا قوية إلى حد سيمكنني من التغلب على خيبتي.»

«حقاً؟» شعرت كيري بدافع لمناقشة تلك العبارة وأضافت وهي تطوي ذراعيها على الطاولة وتنحني صوب جوسي: «هل توجد فعلاً صداقة قوية إلى هذا الحد؟»

«أجل، صداقتنا.» أصرت جوسي على القول، وبصرها يحوم حول حافة فنجانها.

تاقت كيري بكل جوارحها لأن تتوقف عن ملاحقة الموضوع ولكن ضميرها أبى عليها ذلك.

قالت باصرار مماثل، برغم خشيتها من النتيجة: «هذا هو شعورك حالياً، يا جوسي، ولكن كيف ستشعرين إذا حصل أحد زملائك في المستقبل على هذا السبق الصحافي، وكان له الشرف بأن يكون أول من أجرى مقابلة صحافية مع ماكسويل هاربر؟ كيف ستشعرين وأنت تعلمين بأنه لولاي لكان ذلك الشرف من نصيبك؟»

لم تقو جوسي على مواجهة نظرة كيري فأشاحت عنها ثم خبطت الفنجان بقوة على الطاولة فأوشكت أن تدلق القهوة على الخوان الأصفر، وغمغمت وهي تهم بالنهوض: «أظن بأني بحاجة لشيء أقوى من القهوة.»

«كلا» قبضت كيري على رسغها قبل أن تتمكن من النهوض وأردفت قائلة: «كنا صادقتين دائماً مع بعضنا البعض، يا جوسي، ولذلك دامت صداقتنا طوال الأعوام. أرجوك الآن أن تصدقيني القول... من أجلنا معاً.»

«أتريدين الحقيقة؟»

أومأت كيري بالإيجاب وبدا أن الصمت المشحون بالتوتر يستمر إلى ما لا نهاية، ولكن جوسي رفعت بصرها أخيراً وسألت بنظرة يائسة: «أظن بأني سأكرهك إذا ما نال شخص آخر ذلك الشرف بدلاً مني.»

«أشكرك على صراحتك، يا جوسي.» تنهدت وأرخت يد صديقتها وأسندت ظهرها إلى الكرسي.

حملقت بها جوسي بذهول، وأخذت تمسد رسغها حيث ضغطت أظافر كيري على لحمها وسألت متعجبة: «كيف تستطيعين أن تجلسي بهدوء وتشكريني على ما قلته لتوي؟»

أجابتها كيري بالصراحة نفسها التي طالبتها بها: «لأني كنت سأقول الشيء نفسه في ما لو تبادلنا الأدوار، وأعتقد أن ذلك هو المعنى الحقيقي للصداقة.»

كان ذهنها مثل أخطبوط يمد أذرعه في استكشاف حذر، ولما يلمس الخطر ينسحب فوراً، ولكنه يمدها ثانية لعلمه بأن الخطر يجب أن يُواجه.

خرجت من ذلك الصمت التأملي القصير لتجد أنها قد

أتاحت لجوسي بشكل ما النفاذ إلى أفكارها، إذ كان تعبيرها مزيجاً من الارتياح العارم والإثارة المتناهية ولكن سرعان ما خبا توردها، وبدت شاحبة وكارهة نفسها.

«لا يا إلهي، لا!» هتفت متأوهة ثم دفنت وجهها بين يديها وحاولت أن تسيطر على نفسها، ولكن وجهها كان ما يزال شاحباً حين تطلعت إلى كيري ثانية، وقالت: «سوف تقبلين تلك المهمة لتمكنيني من اجراء مقابلتي الملعونة؟»

«وأنت كنت ستفعلين الشيء نفسه من أجلي.»

رنت بحدة واشمئزازها الذاتي يلوي فمها الجميل: «أشك في ذلك! فتلك النزعة الأنانية الكامنة في داخلي هي التي حملتني على المجيء إليك. كان يجب أن ألتزم قراري وأترك الأمور عند ذلك الحد... ولكنني أبيت، إلا أن أورطك لأنني أمل لاوعيي أن تساعديني، ولشد ما أكره الآن هذا الجزء من نفسي!»

تناست كيري مخاوفها الخاصة لتركز على جوسي، فقالت لها بحنان وتفهم: «لا تكرهي نفسك كونك من البشر، يا جوسي. فلقد وضعت لنفسك هدفاً، مثلما تفعل كلنا، وكل ما في الأمر، هو أنني أقف الآن عقبة في طريق تحقيق هدفك. وسواء كانت رغبتك في حملي على تغيير رأيي مقصودة أم لا واعية فهذا لا يهم، إذ المهم هو ألا تشعري بالذنب.»

«أنا لا أستحق صديقة مثلك، يا كيري.» اغرورقت عيناها بالدموع وتابعت وهي تهبّ واقفة: «من الخير أن أعود إلى بيتي لأبكي هناك ما شاء لي البكاء وقد كفاك الليلة ما حملتك من مآسٍ.»

• • •

وقفت كيري في الردهة الخافتة النور تنقر بظفر إبهامها على البطاقة، وتحدق في الساعة الصغيرة الموضوعة بقرب الهاتف. إنها العاشرة والربع. هل الوقت متأخر جداً لإجراء مخابرة؟

رفعت السماعة، وكانت عيناها باردتين، مثل ثلوج الجبال في الصورة المعلقة قبالتها، وطلبت الرقم المطبوع على البطاقة.

رنّ الهاتف بضع مرات قبل أن يجيبها الصوت الذي بات مألوفاً لديها: «ماكسويل هاربر.»

«كيري نلسون.» ردّت باقتضاب مماثل.

«هذه مخابرة سارة غير متوقعة.»

ووَدّت لو تصرخ فيه: أيها الكاذب، كنت تنتظر هذه المخابرة لثقتك بأنها ستحدث حتماً!

بدلاً من ذلك قالت بصوت عدائي بارد: «يجب أن نتكلم. متى يمكننا أن نلتقي؟»

«غداً. هل تأتين إلى بيتي أم أذهب إلى بيتك؟»

«لا هذا ولا ذاك.» ردّت بجفاف، ولكن مشاعرها تجاوبت بدفء مع الجاذبية الكامنة في صوته وتابعت: «يوجد مقهى في مركز الكارلتون يُسمى ريكو. هل تعرف مكانه؟»

«سأجده.»

«وافني إليه في الثانية عشرة والنصف.»

«سأكون هناك.»

أعادت السماعة إلى مكانها وقد أدركت الآن بأنها ما عادت تلمس الخطر لمساً وإنما تقبض عليه بيديها الاثنتين، وأن يوم غدٍ سيكون بداية اللارجوع.

الفصل الثالث

ركضت كيري لتلحق بالمصعد في مركز الكارلتون، وضغطت بقوة على زر الكبح كي توقف الباب قبل انغلاقه. بدا الضيق على وجوه الناس بداخله لاضطرارهم إلى إفساح مكان لراكب آخر وقد امتلأ المصعد بهم إلى درجة الازدحام، ولكن كيري تجاهلت ضيقهم وحشرت نفسها في أقرب ركن بين لوحة الأزرار وامرأة سمينة ذات ذقن مزدوج وتضع عقداً لؤلؤياً مزدوجاً.

بدأ المصعد هبوطه الصاعق السريع فارتفع شعور كيري بالالتواء من قعر معدتها إلى حنجرتها، فابتلعت ريقها بعضلات متقلصة.

لقد أرهقها سهاد الليلة الفائتة وترها، ولذلك تعجبت الآن من استطاعتها إنجاز الجلسة التصويرية الصباحية بكل تعقيداتها المزعجة مما شد أعصابها إلى أقصى حد. وزاد الطين بلّة تأخرها ربع ساعة عن موعدها مع ماكسويل هاربر.

بعد هبوط اثنتي عشرة طبقة توقف المصعد فجأة وعادت أحشاء كيري الحساسة إلى وضعها الطبيعي بترنح مخيف، أشعرها بدوار بسيط عندما خرجت من المصعد. شقّت طريقها صوب مقهى ريكو. كان قلبها يخفق بعنف بين ضلوعها فتأخرها عن الموعد سوف يؤثر سلباً على موقفها، ولم يكن هذا ما تصورته عندما خططت للقائها بماكسويل هاربر.

www.rilas.com

فالتعامل معه سيكون صعباً وهي بحاجة لتسجيل النقاط عليه في كل مناسبة. ولكنها صممت على أن لا تدع هذه النكسة تعرقلها، عندما دخلت إلى المقهى المكتظ، ذي الجدران الخشبية اللامعة والمصابيح المتدلية الناعمة والجو العابق برائحة القهوة الطازجة.

كان ماكسويل يجلس إلى طاولة جانبية تحت ملصق كبير يمثل مصارعاً يهاجم ثوراً، وقد رأته كيري فور دخولها. كان يرتدي سترة خفيفة زرقاء، وقميصاً مفتوحة الياقة ويحتفظ بالجاذبية الخطرة إياها التي واجهتها كيري في لقائهما الأول.

كانت مسيطرة على أعصابها تمام السيطرة بسبب استعدادها لهذا اللقاء، ولكنها لم تستطع أن تمنع الانفعال الغريب في أعماقها عندما رفع رأسه ورآها تشق طريقها إليه.

نهض من على مقعده والتقت نظراتهما، فشعرت بحرارة عينيه تزحف إلى جسمها. ارتعش قلبها تجاوباً مع تلك اللمسة البصرية ووعت فجأة بأن أرق الليل وتعب الصباح قد تركا بصماتهما على وجهها ومظهرها. وذكّرت نفسها بحدّة بأنها لم تسع إلى اللقاء لتؤثر عليه بمظهرها ولكنها تمنت على الرغم منها لو أنها استطاعت الاحتفاظ بنضارة قميصها الأخضر وبنطالها الأبيض.

قالت بصوت بارد جدّي: «أعتذر عن تأخري، يا سيد هاربر.»

«إذن، تأخرك لم يكن متعمداً؟»

لاحظت بريق السخرية في عينيه عندما جلست قبالته

لشعرت ببوادر غضب إلا أن طبيعتها الطيبة تغلبت عليها وأقرت لنفسها بأنها قد تكون أعطته ذريعة ليتصور ذلك.

قالت شارحة: «تأخرت لأسباب خارجة عن إرادتي.» راحت نظراته الغريبة تتفحص عينيها للحظة ثم أزاح رأسه وأشار لإحدى المضيفات بالقدوم إليهما.

سألها حينما وصلت المضيفة إلى طاولتهما: «أتودين أن تتناولي أي شيء مع القهوة؟»

«لا، شكراً. قهوة فقط.»

طلب فنجانين من القهوة ولمّا انصرفت المضيفة قال لها: «أقترح أن ندخل في الموضوع رأساً ونتناقش سبب دعوتك إلى هذا اللقاء.»

«موافقة.» ولم يرقها أن يبدو مسيطراً على موقف أرادت هي أن تسيطر عليه.

قال: «أعتقد أنكِ اطلعتِ على مضمون حديثي مع الآنسة بوير؟»

استقر بصره على شعرها الذي كانت سحبته إلى خلف وربطته بمنديل أبيض.

«أجل. أعرفه. لقد عقدت صفقة مع جوسي، إن هي استطاعت أن تضغط عليّ وتحملني على القبول بمهمة ناميبيا، فسوف توافق أنت على إجراء مقابلة صحافية. وبصراحة، يا سيد هاربر، أعتقد أن أسلوبك الاقناعي جدير بالازدراء.»

«إلا أنه كان ذكياً.»

أثار جوابه الساخر غضبها وخيبتها وتساءلت، ألا يشعر بأي ندم؟ وقالت باستنكار ثلجي: «الابتزاز المعنوي ليس

www.liilas.com

عملاً ذكياً بل هو مقرف. هل تنحط دائماً إلى هذا الدرك كي تحصل على ما تريد؟»

«فقط عندما تكون الحاجة إليه ملحة. إن صديقتك تلح عليّ بإجراء مقابلة وأنا بحاجة إلى خبرتك الفنية، وهكذا أجرينا صفقة.»

ابتسم فجأة فخمد غضبها وانتشر في كيانها دفء أحسته يذيب عظامها. حاولت أن تشيح بنظرها عنه فلم تقو على ذلك، إذ كانت تراقب الأثر الذي أحدثته ابتسامته على وجهه فقد لطّفت قسماته الخشنة المحددة، وعمّقت الغضون الرقيقة على جانبي مقلتيه. لماذا هو وسيم إلى هذا الحد؟

جاءتهما المضيفة بالقهوة وانصرفت ولكن تلك اللحظات القصيرة مكنت كيري من استعادة تماسكها. وضعت بعض الحليب والسكر في قهوتها ولكن ماكسويل شرب قهوته مرة، فتساءلت عما إذا كان اكتسب هذه العادة مرغماً خلال سنوات عمله كمراسل سياسي؟

حذّرت نفسها بغضب، يجب أن تكف عن الملاحظة والتدقيق في هذه التفاصيل المتعلقة به، إذ لا يسعها أن تحيد عن الموضوع إذا كانت تأمل في انقاذ وضعها ووضع جوسي.

سألته إشباعاً لفضولها: «ما الذي حملك على الاعتقاد بأن جوسي قد تكون قادرة على إقناعي بتغيير رأيي؟»

«أعلم بأن صداقتكما تعود إلى أيام دراستكما الابتدائية.»

بدا الاستغراب على وجه كيري فتابع وفي عينيه بريق سخرية: «من المعروف عني، براعتي في اصطياد معلومات معينة.»

«هذا واضح، ولكن هذا ليس جواباً دقيقاً لسؤالي.»

«أنا أعرف كيف يفكر الصحافيون، وإصراري على حماية خصوصيتي جعلني وللأسف، هدفاً رئيسياً لكل هؤلاء الساعين إلى الشهرة. كل ذلك يبدو سخيفاً بالنسبة لوضعي الحالي، ولكنهم يتحدّون بعضهم البعض وكان من الطبيعي أن تدخل صديقتك حلبة الصراع كي تثبت جدارتها الصحافية.» كان يتحنى صوبها، ويسبر غور عينيها وكأنه يحاول تعرية روحها. وتابع يسألها: «هل تستطيعين حرمانها من هذا السبق الصحافي وأن تحافظي في الوقت نفسه على استمرارية صداقتكما؟»

لقد لمس قضية بالغة الحساسية بالنسبة إليها، وشعرت بالرعشة تتردد في أوصالها المشدودة. ثم قالت: «هل لك أن أتفاهم معك، أن تفكر في إعطاء جوسي الحديث المنشود إذا ذكرتُ لك اسم مصوّر بارع...»

«كلا!» قاطعها بخشونة قضت على أملها الوحيد: «إما أن تشملك الصفقة أو لا صفقة على الاطلاق!»

«هذا ليس عدلاً!»

«إذا استطعتُ أن أوافق على استباحة خصوصيتي التي أحرص عليها جداً، فلا أفهم لماذا لا تستطيعين بدورك أن تلغي ارتباطاتك الأخرى أو أن تؤجليها من أجل المهمة التي أعرضها عليك.»

لاذت بالصمت، إذ وجدت في كلامه إنصافاً معيناً لم تقدر على أن تجادل فيه، ولكن ذلك لم يخفف من شعورها الداخلي بالعجز. كانت وكأنها ذبابة علقت في شباك عنكبوت فاستحال الخلاص عليها.

www.liilas.com

كانت واعية لوجود الناس حولهما وتناهت إليها نُتَفٌ من أحاديثهم وضحكات خافتة، وبدا كل شيء طبيعياً ومسترخياً بخلاف الجيشان الداخلي الذي كانت تحسه لحظتئذ وهي تشاركه شرب القهوة.

كان الجوّ بينهما مشوباً بتوتر عدائي. وكانت هناك أيضاً شرارة إحساس كل منهما بجاذبية الآخر، الأمر الذي قد يسلبها قدرتها على التفكير المنطقي، وبخاصة عندما شعرت بعينيه تستقران عليها وتحثانها على النظر إليه.

أزاح فنجانه جانباً فحملقت في يده السمراء القوية وأصابعه. كيف قبض بتلك الأصابع على ذراعها وكيف أحست بلمسته تحرقها وتؤلمها في آن... ولكنها لا تشك في إمكان هذه الأصابع بأن تكون مثيرة...

تمالكت نفسها بسرعة ولكن اتجاه أفكارها الحميم كان قد ورّد خديها بحمرة الخجل، فهذه أول مرة في حياتها تشعر بمثل هذا الشعور، وأملت أن تكون أضواء المقهى الخافتة قد سترت خزيها.

«حسناً، هل تقبلين المهمة أم ترفضينها؟»

رفعت رأسها بحدة واصطدمت نظرتها المحرجة بعينيه. لقد حشرت بإحكام في زاوية ولكنها لم تجد بعد وسيلة للهرب. «هل يجب أن أجيبك الآن؟»

«يوم الاثنين المقبل ستقلع طائرة إلى ناميبيا، وأريد أن أكون على متنها.»

أعطت عيناه شبه المطبقتين انطباعاً بأنه يراوح بين الضجر والكسل، ولكن كيري لم تنخدع بهذه النظرة. فالتيقظ لم يبرح عينيه الداكنتين وقد لاحظ بسرعة كيف ارتعشت

أصابعها بتوتر حين أمسكت بها الفنجان. كان يعرف بأن الكرة باتت في ملعبها، وبدا راضياً بالانتظار، مذكراً إياها بحيوان مفترس ينتظر بصبر لا متناهٍ أن تقوم فريسته بتلك الحركة الحتمية الآيلة بها إلى الأسر. لقد وقعت في مصيدة ولا جدوى من النكران.

«لا أملك خياراً.» قالت محملقة في خوان الطاولة وهي تخطو تلك الخطوة الحتمية الآيلة إلى أسرها. وتابعت: «سأقبل المهمة. إنما أريد منك ضماناً بأن تنفذ اتفاقك مع جورجي.»

«انظري إليّ، يا كيري.» لم تجعلها نبرة الأمر في صوته الخشن العميق بقدر ما جعلها أن يخاطبها باسمها الأول، يجعلها تمتثل لطلبه وتابع قائلاً: «إنني أتعهد لك بأن تحصل جورجي بوير على تلك المقابلة قبل أن أغادر إلى ناميبيا.»

أخذت تتفحص عينيه الداكنتين ولكنها لم تجد فيهما إلا الصدق. لقد تقرر مصيرها وليس أمامها إلا أن تستسلم للمحتوم.

قالت أخيراً: «أنا موافقة يا سيد هاربر، إنما من حقي أن أعرف سبب رفضك استخدام أي من المصورين الآخرين.»

لاح تعبير غريب على قسماته الخشنة الوسيمة وأوشك الصمت أن يصل إلى حدّ الاحراج ولكنه انحنى فجأة صوبها وقال متفحصاً فنجانها: «هل أنهيت شرب قهوتك؟»

كانت هناك جرعة متبقية في الفنجان ولكنها شعرت بيقين بأنها سوف تختنق إذا ما شربتها: «أجل، انتهيت. لماذا تسأل؟»

www.liilas.com

«تعالي معي.» ثم نهض واقفاً. وكان ثمة شيئاً آخر في تصرفه حملها على الانصياع.

انتظرت ريثما دفع الحساب ولما خرجت برفقته من المقهى بدت هادئة ظاهرياً إلا أن توترها العصبي كان يقضم أحشاءها. إلى أين يبغي اصطحابها؟ ولماذا؟

أخذت الأسئلة تضرب ذهنها المتخوف، ولكنها عضت على شفتيها عندما اعتقل ذراعها وقادها إلى خارج المبنى بسرعة، حملتها على الركض أحياناً كي تجاريه.

«إلى أين نحن ذاهبان؟» سألته لاهثة. وبها فضول ووعي عميق لأصابعه الطويلة النحيلة التي بدت وكأنها توسم جلدها بحديد وحشي، عندما وصلا إلى المرآب.

«لقد سألتني لماذا اخترتك أنت بالذات من دون سائر المحمومين، ولذلك سأريك شيئاً لدي. أعتقد أنه سيعطيك الجواب المنشود.» أرخى ذراعها ثم نقل يده الدافئة إلى ظهرها وهو يقودها إلى سيارة مرسيدس رمادية اللون.

«يجب أن أعود إلى هنا في الساعة الثانية.» قالت من باب المماطلة وهي تصارع ذعرها.

رفع يده اليسرى والتمعت الشمس لحظة على ساعته الذهبية المحزمة رسغه النحيل الأسمر. «سوف أعيدك قبل الموعد بوقت طويل.»

كان داخل السيارة مريحاً وفسيحاً ولكن عندما صعد ماكسويل وجلس بقربها وأغلق الباب شعرت بأن المساحة صارت أضيق من أن تكفي لتنفسها الطبيعي.

أسندت رأسها إلى ظهر المقعد لدى انطلاقهما من مركز الكارلتون وحاولت جهدها أن تسترخي ولكنها لم تقدر على

أن تتجاهل تلك الهالة الرجولية القوية المنبعثة من وجه ماكسويل الصامت العابس، ولا استطاعت أن تتجاهل تجاوبها معها.

حاولت التركيز على الطريق الذي سلكاه، إلا أنها وجدت نفسها تركز على تقييم ماكسويل من طرف خفي وتسجل تفاصيل شكله في ذهنها ومشاعرها.

كان قد نزع سترته فبدا قميصه القصير الكمين ملتصقاً بكتفيه العريضتين وأعلى ذراعيه، وكان الشعر القصير يتجعد على ساعديه ويديه المسيطرتين على المقود بيسر وثقة كشأنهما في السيطرة على امرأة ما وإفقادها أي رغبة في المقاومة.

شعرت بانشداد غريب يتملك مشاعرها، إنما لم تستطع أن تغير مجرى أفكارها. هل يوجد في حياته شخص مميز؟ هل لديه زوجة تنتظره كلما سافر، وترحب برجوعه من رحلاته الطويلة والعديدة في أنحاء العالم؟

لم يسعها إلا أن تتساءل برغم إدراكها بأن ذلك ليس من شأنها.

نظرت من السيارة فاختلطت عليها المشاهد والأماكن إلى أن تمكنت من تمييز بعض المعالم فعرفت أنهما في محيط إلليس بارك وفي طريقهما إلى وسط المدينة. إلى أين يأخذها، وماذا يريد أن يريها؟

بعد بضع دقائق أوقف السيارة أمام مدخل بناية صفراء، تضم مجموعات من الشقق الفخمة. فالتفتت صوبه متوقعةً منه شرحاً إلا أنه تناول سترته من على المقعد الخلفي وترجل بصمت من السيارة.

www.liilas.com

لم يسعها إلاّ أن تحذو حذوه، انتابتها رعشة، مع أن دفء الشمس غلّف جسمها بضع لحظات قبل أن يدخلا إلى المبنى ويتجها إلى المصاعد. كانت شتى التساؤلات تحوم في ذهنها عندما انفتح باب المصعد آلياً، ثم بدأ شك رهيب يساورها لما وعت بأنها تُرفع بالمصعد إلى الطبقة الثانية والعشرين.

طال الصمت بينهما وتوتر، وبدا لها أن رحلة الصعود استغرقت دهراً. توقف المصعد أخيراً وانفتح بابه وأوشكت أن تقفز خارجة من جلدها عندما أمسكها ماكسويل من ذراعها وقادها عبر الردهة المكسوة بالسجاد.

وعت بشكل غامض وجود ثلاث شقق في تلك الطبقة ولكنها وعت بوضوح وعمق وجود يده على ذراعها حين سار بها إلى باب الشقة المواجهة للمصعد. تسارعت دقات قلبها وضاق تنفسها إلا أنها لم تستطع صبراً على السكوت.

سألته من دون أن تنظر إليه خشية أن يلمح نظرتها المتخوفة: «هل جئت بي لتعرفني إلى شخص ما أم أنك تقطن في هذا المبنى؟»

«أنا أقيم هنا عندما أتواجد في جوهانزبرغ.»

علق الذعر في حلقها وخنق أي جواب، كان من الجائز أن تقوله. ثم فتح الباب بالمفتاح ودفعه إلى الأمام.

«تفضلي.» قال وفي عينيه بريق ساخر.

ترددت لحظة ثم تقدمته إلى الشقة وقد قررت ألا تدعه يرى اضطرابها، ولكنها أجفلت حين سمعته يغلق الباب خلفهما.

كانت شقته الفخمة خالية من أية لمسة نسائية وقد اختار مقاعد جلدية لغرفة الجلوس الفسيحة تتراوح ألوانها بين البني الداكن والبيج الفاتح. أعجبت بها كيري وشعرت بأنه

لولا وجود مضيفها المقلق لأمكنها أن تسترخي فيها.

بعد ذلك وجدت نفسها تقف بقرب خزانة منخفضة، شرقية النقوش وتعلوها صورة فوتوغرافية مُكبّرة وغير ملوّنة. ألقت كيري نظرة عابرة عليها ثم تفحصتها باهتمام وشهقت شهقة خفيفة إذ كانت صورة مكبرة لإحدى الصور العديدة التي أقامت لها معرضاً منذ عامين، وتذكرت الآن بجلاء كم صعب عليها وقتئذ أن تفارقها.

«إذن أنت الذي ابتاعها؟» وجّهت عبارتها المنذهلة إلى ماكسويل هاربر وهي ما تزال تحملق في الصورة بذلك المزيج من الدهشة والسرور الذي يشعره المرء عادة لدى لقائه فجأة بصديق قديم.

كانت تمثل رجلاً مسناً جالساً في متنزه وقد أراح يديه على عصا وراح يراقب مجموعة من الصغار وهم يتسلقون هيكلاً حديدياً من قضبان أفقية وعمودية. كان وجهه مجعداً وحزيناً إلى حد ما، وفي عينيه تأمل ولكن شفتيه كانتا تفتران عن ابتسامة خفيفة وكأنه تذكر طفولته وابتسم لذكرى معينة.

كانت كيري عليمة بذاك المشهد إذ عاشت تفاصيله منذ أن التقطت الصورة في المتنزه وحتى إكمال كل مراحل التحميض، واستمرت بعد ذلك تدرس الصورة بين الحين والحين كي تطبع في ذاكرتها كل تفاصيلها وكل العواطف التي أثارتها فيها.

«لقد لمستُ اتهاماً في صوتك.» تقدم ماكسويل ووقف خلفها فتسرب إلى أنفها عطر كولونيا لطيف: «هل ساءك أنني الشخص الذي ابتاع الصورة؟»

www.liilas.com

قالت معتذرة وعيناها مسمرتان في وجه العجوز المجعد: «لم أقصد أن أتهمك. فكل صور المعرض لم تكن معروضة للبيع بما فيها هذه الصورة التي كانت المفضلة لدي.»

«هذا ما استنتجته من السعر الباهظ الذي دفعت.»

بدا صوته لاهياً فتوردت خجلاً ومع شعور بالذنب، إذ تذكرت ذعرها الماضي عندما أبلغها صاحب صالة العرض بأنه سيبيع الصورة.

الآن، تمالكت نفسها وقالت لماكسويل شارحة: «كان السعر الباهظ مقصوداً. كي ينكفيء الناس عن الشراء.»

«وهذا ما زادني تصميماً على ابتياع الصورة وهي تستأهل كل سنت دفعته.»

استدارت ورمقته باستغراب. كان جاداً في كلامه وفي نظرته شيء ما جعلها تسأله: «هل هي ما أردت أن تريني؟»

أشار إلى الصورة وقال: «أجل. ألا تفسر لماذا اخترتك من دون سواك؟»

«ذلك يتوقف على ما قد تكون تسعى إليه.» أجابته بحذر إذ لم تشأ أن تتورط قبل أن تقف على استنتاجه.

«أنا أبحث دائماً في عمل المصوّر عن التعاطف والحنان والتفهم، و أبحث عن الحساسية بشكل خاص، وهذه الصورة تنطق بكل هذه العواطف.»

أذهلها مديحه وأثار فيها بعض الفضول فهو لم يهتم بالناحية التقنية لعملها، بل نظر إليه من ناحية إنسانية وكشف عن عواطف كانت غائبة عنها.

قالت تحاوره: «لا يستطيع أي مصوّر أن يضمن توافر كل هذه النواحي في كل ما ينتجه.»

أكد لها بلطف: «أنا لا أجادل هذه الحقيقة، لأن إبراز هذه المزايا لا يتوقف فقط على الموضوع والظروف، بل يتوقف أيضاً على مقدار ما يستطيع المصوّر أن يعطي من نفسه لعمل معين، وهذا يختلف بالطبع تبعاً للمزاج والاحساس. وقد ذكرت سابقاً بأني بحثت عن الحساسية بشكل خاص والتي وجدتها في كل صورة من صورك.»

كان غاية في الذكاء. فهو لم يزودها فقط بتفسير لسؤالها بل لجأ أيضاً إلى شتى الحيل ليدعم شرحه. لقد غلفه بكلمات مديح معسولة ولكنه أضاف إليه مقداراً وافراً من المنطق لا تستطيع أن تتجاهله. فطبيعة كتبه تتطلب أكثر من صور تجارية عادية، وهي تدرك بالطبع بأنها تملك القدرة على إعطائه ما يريد.

لكنها أشاحت عنه وحاولت أن تستخف بملاحظاته فقالت بشيء من التهكم: «أظن من المفروض أن أشعر بالغرور.»

«كلا.» أدارها صوبه بسرعة وتابع وأصابعه تضغط على كتفيها: «لقد أصدقتك القول، فأنا أعتبر المديح زيفاً لطول ما تعاملت مع الحقائق القاسية والباردة.»

نظرت إلى قسماته القاسية المتصلبة وأدركت غلطتها. فالحقائق تُبنى على الصدق وهذا الرجل لا يعطي إلا بقدر ما يأخذ. بل رجحت بأنه يلتزم هذه القاعدة ويعمل في ضوئها وهي أهانته من حيث لا تدري باستعمالها المخطيء للكلمات.

قطعت الصمت بقولها: «أظن أن الوقت حان لانصرافي. قلت إنك ستعيدني إلى الكارلتون قبل الثانية، وقد قرب الوقت.»

ابتعد عنها وقال ناظراً إلى ساعته: «لدينا ثلث ساعة، ولذا سأوصلك قبل الموعد.»

صمتا أثناء رجوعهما بالسيارة، وكانت كيري هذه المرة أقل تركيزاً على جارها وأكثر اهتماماً بمشكلة مستقبلها القريب. لقد قبلت المهمة... من أجل جوسي إنما انتابها شعور بأنها ستندم في المستقبل.

أوقف السيارة عند مدخل الكارلتون وكانت تترجل منها عندما قال: «سأتصل بك حالما أنجز ترتيبات السفر.»

أومأت من دون كلام، وأملت وهي تسير مبتعدة بأن تكون بدت هادئة أكثر من الشعور الذي انتابها.

www.liilas.com

صباح السبت، وبرغم حركة السير المزدحمة، قصدت كيري المدينة وابتاعت بضع حاجيات أخيرة. ثم أمضت نهاية الأسبوع في انتقاء ملابس محددة وضرورية لرحلتها.

كان ماكسويل قد اتصل بها هاتفياً وحذّرها بقوله: «لا تحملي أكثر من حقيبة ثياب واحدة. تذكري أن المنطقة ستكون وعرة على الغالب، وقد يصبح الحرّ خانقاً لذا أقترح أن تختاري ثياباً تناسب هذه الرحلة لا ثياباً حديثة الزيّ.»

كانت كيري معتادة على السفر بأقل قدر من الثياب. ففي إحدى المرات، لما قامت برحلة تصويرية بواسطة الدرّاجة، اضطرت، وعلى مدى أسبوعين، لأن تكتفي بحقيبة ظهر واحدة كي تفسح مكاناً لكاميرتها الثقيلة وآنذاك، لم تجد صعوبة في اختيار ملابسها، أما الآن فوجدت نفسها تواجه مشكلة.

مساء الأحد، وكانت في حالة توتر عصبي نادر الحدوث، وصلت جوسي على غير انتظار حاملةً طعاماً صينياً جاهزاً ومرطبات.

قالت وهي تلج البيت كالنسيم: «آمل أن تكوني جائعة.» اضطرت كيري للتذكر بأنها لم تأكل طعاماً يُذكر منذ الصباح. ردّت باسمة: «أكاد أموت جوعاً.»

«عظيم»، ولمّا نظرت إلى القميص المطوي والبنطال اللذين تحملهما كيري تابعت تقول: «أرى أن تمضي في توضيب ثيابك، ريثما أضع الطعام في المطبخ وأفتح الزجاجتين.»

ارتفعت معنوياتها وصفا مزاجها لدى عودتها إلى مخدعها لتحزم القطع القليلة والأخيرة من الثياب. لقد سرّها قدوم جوسي. كانتا تحدثتا على الهاتف بإيجاز ولكنهما لم تريا بعضهما منذ أسبوع تقريباً، حين جاءت جوسي مساء وهي في حالة توتر من جراء عرض ماكسويل هاربر.

لحقت بها جوسي إلى المخدع بعد بضع دقائق وحدقت بدهشة في حقيبة السفر المتوسطة الحجم المفتوحة على السرير. «ألن تأخذي سوى هذه الحقيبة؟»

أنزلت كيري غطاءها وقالت مبتسمة بجفاف: «أحمد الله على أنني لست من النوع الذي يدقق كثيراً في ما يلبس. لقد حزمت فستانين للسهرة غير قابلين للتغضن، أما سائر الثياب فكلها عادية ولا تحتاج إلى كيّ بعد غسلها.»

علّقت جوسي بصوت شابه بعضُ الحسد: «طالما أعجبت بقدرتك على العيش بتقشف. هل تأكلين الآن؟»

«أجل.»

تحدثتا حول أمور كثيرة أثناء الطعام ولكنهما تجنبتا موضوع سفر كيري ولم تفتحاه إلا بعدما استقرتا في غرفة الاستقبال مع القهوة. وتكوّرت جوسي على مقعد مريح

وجلست كيري على الأريكة بين أجهزة الكاميرا المتعددة. انقطع حديثهما فجأة وران عليهما صمت طويل مزعج إلى أن سألت جوسي: «متى ستقلع طائرتك صباحاً؟»

«في السابعة إلا ربعاً.»

«هل أقلك إلى المطار؟»

«لا، سأستقل سيارة أجرة.» رفعت بصرها عن العدسة التي كانت تنظفها، ولما رأت صديقتها تقطب جبينها بخيبة أضافت بابتسامة مطمئنة: «لقد رتبتُ كل شيء. سيأتي السائق باكراً ليأخذني.»

«ليتني أستطيع أن أساعدك بشيء، فأنا أشعر بذنب كبير و...»

قاطعتها كيري بلطف حازم: «كفى! تعلمين أني كنت أتحين الفرص لأقوم برحلة كهذه إلى ناميبيا. والآن حصلت على هذه الفرصة.»

«أعلم ذلك، ولكنك لم تأخذي بالحسبان أن يكون ماكسويل هاربر رفيق سفرك.»

هزّت كيري كتفيها: «سأتغلب على ذلك. دعينا الآن نتحدث في أمورك. هل خرجت راضية من مقابلة ماكسويل هاربر؟»

«نعم ولا. فهو شديد الاحتراس بما يتعلق بحياته الخاصة ولذلك لم أعرف الكثير عنه كرجل ولكنه زوّدني بمواد وافرة لكتابة مقال مثير.» رشفت من فنجانها وأردفت مبتسمة: «لا بأس بالمقابلة بوجه عام.»

«إنها إنجاز في أي حال.»

«بالطبع. إنه في غاية اللطف، يا كيري. من السهل أن يتحدث المرء معه، كما أنه صادق وصريح.»

آثرت كيري عدم الإجابة، ولكن قلقها جعلها تضاعف نشاطها في تنظيف عدسات الكاميرا في حين مضت جوسي في إبداء تعليقاتها المزعجة.

«إنكما تتشاركان العديد من الاهتمامات المتشابهة، الأمر الذي حملني على التفكير بأنكما ستشكلان زوجاً مثالياً. ألا تظنين بأنك قد...»

قاطعتها كيري بحدة: «لا! لا أظن ذلك!» ثم ألقت العدسات في حضنها وتناولت فنجانها لتشرب جرعة قهوة تنشطها: «أنا قانعة بالاستمرار على ما أنا عليه حتى ألتقي بالرجل المناسب، ولن أرضى إلا بارتباط شرعي دائم.»

«وكيف تعرفين بأن ماكسويل لن يكون ذلك الرجل المناسب؟ إنه في الثامنة والثلاثين، وعازب، و...»

«ومن الأرجح أن يظل عازباً لسائر أيام حياته.»

سألتها جوسي باستغراب: «وما الذي يحملك على هذا الظن؟»

«ما قاله في عرس ابنة أخته.»

جرعت ما تبقى من قهوتها وفكرت في نفسها، لقد أخفت جزءاً من الحقيقة ولكنها لم تكن ترغب الآن في توسيع الموضوع.

قالت جوسي تجادلها: «قد تكونين مخطئة في ظنك.»

«لا أعتقد ذلك، فهو يوقف حياته على عمله.»

«كنتِ دائماً في منتهى العقلانية والمنطقية في نظرتك للحياة، ولذلك أستغرب الآن ردّ فعلك العنيف تجاه أمر لا يعدو كونه مجرد افتراض.»

سارعت كيري إلى الاعتراف على الرغم منها: «ولكني

لست عقلانية أو منطقية في ما يتعلق بماكسويل هاربر.»

«إذا كنتِ تحاولين مقاومة انجذابك إليه، بحمل نفسك على الاعتقاد بأنه سيء، فلا بدّ أن تأثيره عليك كان شديداً.»

كانت جوسي تنزع إلى تعرية الأمور حتى العمق كي تكشف عن جذور المشكلات التي تنتج عن سوء الطالع، ولما فعلت ذلك الآن صُدمت كيري بما رأت.

قالت مُبرِّرة تصرفها الغريب: «لا أدري لماذا تركتُهُ يؤثر عليّ بهذا الشكل. ويعلم الله بأني حاولت أن أكون منطقية، وأن أقنع نفسي بأن إعجابي بكتاباته هو الذي جعلني أتصرف تقريباً مثل مراهقة سخيفة عندما رأيته أول مرة. لكن هذا الوصف غير دقيق لشعوري آنذاك لم يكن شعوري [illegible] تلقائية، وما شعرته بعد ذلك لم تكن له أدنى علاقة بالهوس بالمشاهير.»

«أعتقد أن ذلك المارد الجذاب نجح في توعيتك إلى حقيقة كونك امرأة طبيعية ذات حاجات حسية طبيعية.» ثم اتخذت وضعية إغراء ورفرفت أهدابها وأردفت: «لو كنت في مكانك لسعيتُ إلى هذه التجربة واستمتعت بها.»

ضحكت لتهريج جوسي ولكن ضحكتها انتهت إلى تنهد ساخط وقالت: «أنا لا أسعى إلى علاقة من هذا النوع، يا جوسي، فهذه علاقة عمل محضة.»

«لاحظتُ بأنك لم تُنكري انجذابك إليه.»

«لا، لن أنكر ذلك، ولكني لا أريد أن أتورط معه عاطفياً، لأنه سيأخذ أي شيء يستطيع الحصول عليه من دون أن يعطي شيئاً بالمقابل.»

«هل تخافين من امكانية وقوعك في حبه؟»

اعترفت بقولها: «أجل، إلى حدّ تعرضي للكوابيس.»

«يا إلهي! لقد كنت غبية وأنانية وعمياء!» هتفت جوسي بغضب وأخذت تذرع أرض الغرفة ثم توقفت واستوضحت بقلق: «كيف ستتعاملين مع عواطفك عندما تنفردين به في البراري؟»

«أظن بأنني سأضعف، وهذا ما يخيفني في الواقع.» كان محيّاها مكسواً بالوجوم ثم تبسمت بتوتر وأردفت: «من ناحية أخرى، سأضع نصب عيني بأني قد أكون أطالب بعاصفة، فيما الأفق خالٍ من الغيوم.»

حملقت جوسي فيها بضع لحظات ثم تهالكت على كرسيها قائلة: «أظن بأنني سأبقى تحت وطأة الكوابيس إلى أن تعودي سالمة ومعافاة.»

الفصل الرابع

لم تأبه كيري لمراقبة المشاهد الأرضية المتبدلة من على متن طائرة البوينغ، ولا أكملت الوجبة التي قدّمها طاقم الطائرة للركاب. كانت محشورة بين ماكسويل هاربر الجالس إلى يمينها وبين النافذة المتسربة منها أشعة الشمس الصباحية إلى يسارها.

لقد شعرت بأنها في مصيدة منذ لحظة صعودهما إلى الطائرة في مطار جان سمتس، عندما دفع بها ماكسويل إلى المقعد الملاصق للنافذة. كان أريج الكولونيا المنعش منه يدغدغ مشاعرها ويثير رغبتها في الهرب ولكن جسمه اتخذ شكل حاجز راسخ، فاستحال عليها بالتالي أن تغيّر رأيها وأن تقوم بمحاولة أخيرة للفرار من المأزق.

كانت ربطت حزام الأمان وجلست بصمت وتصلب خلال نصف الساعة الأولى من طيرانهم إلى مدينة ويندهوك. حاولت النظر من النافذة لتتلهى، وحاولت القراءة ولكنها لم تستوعب شيئاً سوى وجوده بقربها واهتزاز أعصابها المكهربة كلما لامست ذراعه القوية ذراعها.

علّق بعدما رفعت المضيفة صينيتي طعامهما: «لم تأكلي شيئاً من إفطارك.»

«لم أكن جائعة.» قالت بزيف وهي تطوي الطاولة الصغيرة التي أمامها وتنفض وهم فتات خبز عن حضن سروالها ثم تُخرج مجلتها من جيب المقعد أمامها.

«أتريدين فنجاناً آخر من القهوة؟» قال بالحاح وهو يميل صوبها، فتصلبت غريزياً عندما أحست بكتفه الدافئة تضغط على كتفها.

«لا، شكراً، يا سيد هاربر.»

«ماكس، جميع أصدقائي ينادونني ماكس.»

تقلصت أصابعها على صفحات المجلة المفتوحة. لم تكن من قبل تجد أية صعوبة في رفع الكلفة مع الناس ومناداتهم بأسمائهم الأولى، ولكن رفع الكلفة مع هذا الرجل يوحي بحميمية لا تريدها.

علّقت قائلة: «لقد استخدمتني كمصورة، وهذا يضعني في خانة الموظفين لا في خانة الأصدقاء.» وقلبت صفحة أخرى كي تبتعد قليلاً عن كتفه.

«حتى أعدائي ينادونني بماكس.»

أعداؤه؟ خطر لها أن تضحك، ثم فكرت قليلاً، ولم تستبعد أن يكون له أعداء نظراً إلى عمله السابق، الطويل كمراسل سياسي.

حاولت أن تتخيل حياته الماضية، ولما أخفقت تمعنت في قسماته الخشنة وسألته بفضول خلا من الحرج: «ألديك أعداء كثيرون؟»

ردّ مبتسماً: «بضعة أنفار.»

راقتها ابتسامته التي أشعرتها بدفء داخلي غريب وبدأت تذيب تحفظها الثلجي الذي كانت تتمسك به بيأس. لا ضير في أن تخاطبه باسمه الأول. أخفضت بصرها إلى صفحة المجلة ولكنه لم يتركز على الكلمات المطبوعة عندما سألته بعرضية مصطنعة: «ما دام الأصدقاء والأعداء ينادونك ماكس، فليس لي إلا أن أحذو حذوهم.»

«كرريه.»

«أكرر ماذا؟»

قال بلهجة آمرة وهو ينظر في عينيها المتسائلتين: «اسمي، أعيديه على مسمعي.»

«ماكس.» امتثلت لطلبه برغم استغرابها وحيرتها.

«إنه يخرج من شفتيك كالموسيقى» وتنهد على نحو مسرحي ثم تظاهر بالاغماء وتهالك على مقعده.

سألته كيري بحنان وهي تحاول كتم ضحكها: «هل يؤثر الطيران عليك دائماً على هذا النحو؟»

«فقط عندما أكون جالساً بجوار امرأة جميلة.» ورفع رأسه من على ظهر المقعد ونظر بدفء إلى شفتيها المرتعشتين.

قالت بصوت رزين وقد فرزت السيطرة على خفقان عروقها: «هذا حوار سخيف.»

«صحيح، إنه سخيف ولكن ذلك لا يبدل حقيقة أنك امرأة جميلة.»

بدأت تشعر بحرج وارتباك أمام نظرته التقييمية المباشرة فغمغمت تقول: «لماذا لا تقرأ مجلة، أو... أو تفعل شيئاً ما؟»

«أعتذر، إن كنتُ أحرجتك، ولكنك الآن أكثر استرخاء عما كنتِ عليه قبل ربع ساعة.» ثم مال صوبها وأردف: «ألست كذلك، يا كيري؟»

فكرت لحظة بعبارته ووجدت أنه أصاب الحقيقة: «أجل، أنا أكثر استرخاء.»

«ما الذي وتّر أعصابك؟»

«أشياء عدة.»

«وما هي؟»

لم يسمح لها صدقها الأصيل بأن تكذب عليه، ولكنها اختارت البند الأقل أهمية في قائمة شكاويها.

قالت: «لم أغفر لك ابتزازك لي بحيث أرغمت على قبول هذه المهمة.»

رد بوجوم: «لقد تعادلنا إذن، فأنا لم أغفر لك إكراهك لي على منح حديث صحافي لصديقتك.»

احتجت بحدة وهي تحدجه بغضب: «هذا غير صحيح! لو أنك وافقت من البداية، لما كنت تطرفت إلى هذا الحد، كي أحملك على القبول.»

كان عليها أن تذعن للهزيمة إلا أنها كانت ما تزال مفعمة بروح القتال وقالت: «يجب الحفاظ على سلامة التوازن في معظم الأمور. لذلك أتصور أن الخسارة كثيراً ما يعقبها ربح التعويض بالنقيض.»

«هذه فلسفة مثيرة للاهتمام، إنما دعينا نقيّمها من موقعك أنت.» ابتسم بشيء من السخرية، وشعرت بأنه سينتصر في هذا النقاش عندما أخذ يحصي مكاسبها على أصابعه. «سوف تربحين مادياً من خدماتك التصويرية، ولن تدفعي شيئاً من نفقات هذه الرحلة التي ستؤدي في النهاية إلى نشر انتاجك وانتشاره لدى الرأي العام. فماذا خسرتِ في العملية كي نأخذ بعين الاعتبار ذلك التوازن السليم الذي ذكرت؟»

«لم أتأكد بعد.» أشاحت عنه وتساءلت كيف ستجيب على هذا السؤال بعدما تقضي ثلاثة أسابيع برفقته.

قال مقاطعاً أفكارها الوجلة: «أقترح أن نسامح بعضنا، ونعلن هدنة حول هذا الموضوع. ما رأيك؟» مد يده صوبها.

www.liilas.com

«سأهادنك.» وافقته بعد تردد بسيط وصافحته من كـ
الخشنة، الدافئة.

اعتقل على حين غرة، رسغها بيده اليسرى و
أصابعها على كفه اليمنى وقال: «لاحظتُ سابقاً أن لـ
يدين ناعمتين، قد تكونان صغيرتي الحجم إلا أنهما قويتـ
وقادرتان.»

«أرجوك أن تعيد لي يدي.» كان في صوتها هدوء، تناقضـ
تسارع نبضاتها المتوترة، عندما أدار يدها ورفع كفها صو
«لحظة وأعيدها إليك.» وأخذ يمرر إصبعه على مجر
الندبة البيضاء الممتدة عرضاً على كفها. كانت لمسـ
كالريشة وأثارت فيها إحساساً ممتعاً أرعش كيانها. «ـ
سبب هذه الندبة؟»

«تمزقت يدي مرة بسلك شائك.» خرج صوتها من
حلقها المشدود وضاق تنفسها وهي تحدق مسحورة، إلـ
اصبعه التي كانت تتحرك جيئة وذهاباً على تلك النـ
القديمة شبه المنسية.

هل كان واعياً حركاته وتأثيرها المهلك على عواطفها
سألها مقطب الجبين: «ما الذي أوصلك إلى تلك الأسلا
الشائكة؟ وماذا كنت تفعلين هناك بحق السماء؟»

«كان هناك ثور هائج يلاحقني ويحرث التراب في
أعقابي، وكانت البوابة بعيدة عني فلم أتمكن من الوصو
إليها سريعاً لأهرب عبرها.» وأخذت تزحزح قبضته القوية
«والآن، هل لي أن أسترد يدي؟»

أطلق سراحها، ثم سأل وقد بدأت تتنفس بسهولة: «كم كا
عمرك وقت الحادثة؟»

«كنت في الرابعة عشرة.» غمرتها ذكرى تلك الفرار
المخيف، فأردفت بمرح ساخر: «أنا مغامرة بطبعي وفي تلك
السن كنت غبية أيضاً.»

«كلنا نكون أغبياء في ذلك العمر.» لطّفت ابتسامته خطوط
شفتيه الصارمة وأضافت إليها جاذبية لا تقاوم، ومضى
يسألها: «متى وكيف نشأ اهتمامك بالتصوير؟»

أخفضت بصرها، هرباً من رؤية فمه الساحر ووجدت
نفسها تحملق في الشعر الداكن المجعد عند فتحة قميصه،
وتساءلت عن ماهية شعورها إذا ما لامسته ولامست جلده
الدافئ بكفها؟

والت تؤنب نفسها: كفي يا كيري ولا تعذبي نفسك لقد طرح
عليك سؤالاً وهو ينتظر جوابك، ركزي على ذلك الجواب.
أسندت رأسها إلى ظهر المقعد وحدقت إلى زرقة السماء
عبر النافذة، وأرغمت نفسها على الاسترخاء واستذكار
الماضي:

«في عيد ميلادي العاشر ابتاعت لي أمي أول كاميرا. كانت
من النوع الذاتي التركيز، وبها مصباح ومضي مُثبّت، وكنت
في البداية أصوّر أي شيء يقع عليه بصري ولكن مع مرور
الوقت صرت أكثر دقّة في اختيار اللقطات التي أصورها.
ولما بلغت الثالثة عشرة حالفني الحظ وفزتُ في مسابقة
تصوير، وكانت الجائزة كاميرا حديثة ذات عدسة منعكسة
واحدة، عرفتني إلى البُعد الفوتوغرافي الكامل.» صمتت
تفكر لحظة ثم أردفت: «أعتقد بأنني اكتشفت وقتئذ رغبتي
في احتراف التصوير.»

«لا بد أن أمك فخورة بك وبانجازاتك المهنية.»

www.liilas.com

التفتت صوبه لتنظر في عينيه الداكنتين المركزتين عليها ثم أشاحت بسرعة حين شعرت بغصة كبيرة تكوي حلقها كان من السخف ربما أن تتوجع الآن ولكن الجرح ما زال مؤلماً برغم مرور السنين.

قالت بصوت هش: «لقد توفيت والدتي خلال سنتي الجامعية الأولى، وقد ظل إرثي في رعاية وصي، حتى بلغت الحادية والعشرين. كانت مخصصاتي الشهرية تكاد أن لا تكفي تسديد أقساط دراستي ولذا اضطررت للعمل في أوقات فراغي لأزيد مدخولي.»

«أما كان باستطاعة والدك أن يساعدك؟»

تصلبت داخلياً وهي تقيم حواجز أخرى أمام نوع مختلف من الألم. «لقد هجرنا والدي حين كنت في الخامسة ول... تزوج أمي ثانية.»

«ألم يتصل بك أبداً خلال ما مرّ من سنوات؟»

سمعت بأنه رحل إلى أوستراليا، ومنذ خمس سنوات استطعت بمساعدة صديق أن أعرف مكانه. فاتصلت به ولكن الجواب أثبط أية محاولة أخرى لإجراء اتصال. عبثت بشرود بصفحات المجلة المنسية على حضنها وتابعت: «إنه المدير المسؤول في شركة الهندسة الأنشائية التي يملكها، وأتصور بأنه واسع الثراء وإلا لما استطاع الاقامة في إحدى ضواحي سيدني الراقية. لقد تزوج ثانية وله ولدان مراهقان، وظهور ابنة له من زواج سابق سوف يعقد حياته.»

سألها ماكس: «هل قال لك هذا بالفعل أم أنه مجرد تفسير منك لجوابه؟»

«قال ذلك حرفياً، بناءً على مصدر معلوماتي الموثوق.» وأخفت ألمها خلف ابتسامة متوترة.

«يؤسفني ذلك.»

«قال أيضاً إن فراقنا الطويل سيجعلنا نواجه بعضنا مواجهة الأغراب، وليس بيننا من قاسم مشترك سوى أنني أحمل اسمه نتيجة لزواج يفضّل أن ينساه.»

لقد حثها فضول وحنين غامض على البحث عن والدها بعد مرور ثلاثة أعوام على وفاة أمها. لم يكن في بيتهما أي صور له، وكانت ذكرياتها عنه قد تقلصت إلى ذكرى باهتة لظل رجل بلا ملامح واضحة.

قالت الآن: «لم أقصد بتاتاً أن أتطفل على حياته أو أطلب منه أن يجعلني جزءاً منها.»

ذلك لم يكن من شأن ماكسويل هاربر أن يعرف السبب الذي حثها على الاتصال بوالدها قبل خمسة أعوام، ولكنها لسبب غامض ما عجزت عن كبح الكلمات التي تدفقت من شفتيها.

«كل ما أملت فيه آنذاك هو أن ألتقيه لوقت قصير كي أتكلم معه وكي أشبع رغبة مجنونة في التعرف إلى شكله، ولكني أظن أنني كنت أتوقع الكثير.»

سألت نفسها، ماذا دهاك، يا كيري؟ لقد أخبرتِ هذا الرجل شيئاً لم تذكريه حتى لجوسي التي من المفروض أن تكون صديقة حميمة لك!

قطع ماكسويل أفكارها الغاضبة حين سألها بصوته المخملي العميق: «هل أخبرتك أمك يوماً السبب الذي جعل والدك يهجر بيت الزوجية؟»

www.liilas.com

«قالت إن السبب كان تضارباً مؤسفاً في شخصيتيهـ
وأبت أن تضيف إلى ذلك شيئاً، وأنا لم أشأ أن الاخـ
الموضوع، إذ وضح لي بأنه كان ما يزال يؤلمها كثيـ
ويجعلها تعرض عن مناقشته.» ثم ضربت الهواء بيديهـ
كإشارة لا واعية إلى رغبتها في انهاء الحوار، وخلصت إلـ
القول: «لا أدري كيف انحرفنا عن موضوع اهتمامـ
بالتصوير إلى موضوع والدي الهارب؟»

«لأن الأحاديث تجرّ بعضها بعضاً.» ونظر إلى عينيهـ
العاصفتين وابتسم لها بدفء، أزال غضبها وولّد فيها رغـ
في البكاء.

ظهرت المضيفة مع عربة كانت تجرها أمامها على الممـ
وأخذت تجمع الأكواب والفناجين، فاسترعت القرقعة انتبـ
ماكس واستغلت كيري الفرصة لتلملم مشاعرها.

انتظرت حتى صارت المضيفة في آخر الممر ثم التفتـ
إلى جارها الوسيم. إن ما صارحته به في وقت قصير لهـ
أكثر مما صارحت به الآخرين طوال حياتها. لماذا؟ وأيّ
شيء فيه جعلها تنفتح على هذا النحو وتفضي لهـ
بمكنوناتها؟ ثم ماذا تعرف هي عنه؟

سألته: «أما يزال والدك على قيد الحياة، يا ماكس؟»

«كلا.» أطبق فمه على هذا الجواب... الكلمة، ولم يعقـ
بشرح.

مضت تسأله بفضول: «هل لمست موضوعاً حساساً، أمـ
أنك تمارس معي ترددك المعتاد في التكلم عن نفسك؟»

ولما نظر إليها وقرأت في عينيه الداكنتين إنذاراً بوجوب
التراجع، أدركت الدافع إلى ردّ فعله.

قالت: «أنا لا أنقّب في حياة الناس الخاصة لمصلحة جوسي، من الجائز أن نتبادل المساعدة كصديقتين ولكننا لا نستغل بعضنا بعضاً مهنياً.»

رفع حاجبيه استغراباً من عباراتها التوكيدية الهادئة: كيف استطعت قراءة أفكاري؟»

«لأن موجاتك الفكرية كانت تبث بقوة ووضوح، فسمعتها بسهولة.»

«أنا مدين لك باعتذار.»

«كلا، فأنا أتفهم ردّ فعلك.»

«إذن لنبدأ الحديث من جديد.» امتدت ابتسامة عينيه إلى شفتيه مزيلة عنهما التوتر: «سألتني عما إذا كان والدي على قيد الحياة.»

«وأنت أجبتني بالنفي.» قالت تتذكر عندما صمت مفكراً: «لا موجب لأن تتكلم في الموضوع إن كنت لا تود ذلك.»

«أنا أتحاشى التفكير فيه ولكن ليس فيه ما يعيب.» نظر إليها لحظة ثم أشاح بنظره عنها وتابع: «توفي والدي في حادث تحطم طائرة مروحية، وكنتُ وشقيقتي طفلين صغيرين. ووالدتي قضت من أسباب طبيعية قبل بضعة أعوام.»

أدركت كيري أن القصة أكبر من ذلك إذ أنها استشعرت أحاسيسه الداخلية التي رافقت كلامه وشعرت بأنها مرغمة على ملاحقة الموضوع: «ولماذا استقل والدك تلك الطائرة؟»

«كان ذاهباً في مهمة.» ثم التفت إليها وكان تعبيره جامداً وموضحاً بأن هناك أشياء معينة ما يزال يعتبرها خاصة جداً، ولا يستطيع بالتالي أن يفشيها. «كان أبي مراسلاً سياسياً.»

سيطرت بصعوبة على تعابيرها ولكنها شعرت بالم بالخلي غريب وهي تسأل: «كيف كان موقف أمك عندما عرفت بأنك تعتزم السير على خطى والدك؟ ألم تعارضك؟»

«حاولت إقناعي بالعدول، مُحذرة إياي بأنها مهنة موحشة، وخطرة في معظم الأحيان، ولكنها وقفت عاجزة حيال تصميمي.» وهنا ابتسم بمرارة وأردف: «كانت تعلم جيداً بأنني ورثت عن أبي حبه للإثارة وارتياد الأماكن النائية، وتعلم أيضاً بأنني لا يمكن أن أشفى من ذلك التوق العميق ما لم أحاول إشباعه.»

«ولكنك لم تشبعه كلياً، أليس كذلك؟»

تسعت ابتسامته وقال ناظراً في عينيها: «أنت ذكية جداً. كلا، لم أشبعه كلياً، وأشك في أني سأفعل ذلك يوماً.»

وهنا صدح صوت قائد الطائرة عبر الهاتف الداخلي يعلن هبوطهم الوشيك صوب ويندهوك، فتساءلت كيري عما إذا كان في إعلانه شيء من الرمزية.

هل ستبدأ هي هبوطها المزعزع صوب أمر مجهول قد يغير مجرى حياتها؟

تقع مدينة ويندهوك وسط أراضٍ قاحلة، تحميها جبال الأواس والايروس من الرياح المتناهية الجفاف. وبرغم ذلك وجدت كيري الهواء عالي الحرارة وكثير الجفاف. عندما وقفت أمام النافذة في غرفة الفندق وراقبت الشمس وهي تغرب ببطء فوق هذه المدينة التاريخية. كان ذاك يومها الأول في ناميبيا.

يقع مطار ويندهوك في أوندكاريمبا التي تبعد شرقاً

أربعة وأربعين كيلومتراً عن العاصمة، وكانت الطائرة قد حطّت في موعدها، أي في التاسعة إلا ثلثاً في ذاك الصباح.

كانا قد استقلا سيارة أجرة أوصلتهما إلى الفندق، وبعد حين تركها ماكسويل لتقضي النهار كما يحلو لها وخرج ليأتي بسيارة الرانج روفر التي استأجرها سابقاً وليبتاع المؤن اللازمة للرحلة. وكان عليه أيضاً أن يجتمع ببعض المسؤولين ليحصل على رخص معينة قبل أن يغادرا في الصباح التالي.

ناولها قبيل خروجه خريطة مطوية وقال لها شارحاً: «إذا وجدت وقتاً، فقد يهمك أن تطلعي على هذه الخريطة لناميبيا وسوف تلاحظين بأنني رسمت خطاً للطريق التي سنسلكها.»

حظيت كيري بفرصة لاستكشاف المدينة على هواها، فتمضت ما قبل الظهر في التفرج على واجهات المحلات التجارية وفي ارتياد الأماكن التي تستحق المشاهدة، وبعد الغداء، حملت كاميرا اللايكا وخرجت تتمشى في حي كيسرستراس لتلتقط صوراً، تسجل عبرها التفاوت المدهش في هندسة البناء.

كانت هناك أبنية يعود تاريخها إلى العقد الأول للقرن العشرين ذات أسطح شديدة الانحدار، وواجهات عليا مثلثة الزوايا، ونوافذ ناتئة من سقوف مائلة، وبالقرب منها ترتفع أبنية عصرية متعددة الطوابق. كان مزيجاً لطيفاً من القديم والحديث، حيث تندمج المشيدات العصرية من اسمنت وفولاذ مع هندسة حقبة التاريخ الألماني الاستعماري، وبدا لكيري أنها قد اجتازت العقود المتعاقبة بكرامة وإباء.

استطالت الظلال مع الغسق، وتنهدت كيري وهي تستدير مبتعدة عن النافذة. سوف تتناول العشاء مع ماكس في مطعم

الفندق، ولما نظرت إلى ساعتها وجدت بأنه لم يبق لها سوى بضع دقائق كي ترتب شعرها.

لم يُحدث خفّها الفضيّ أي صوت على السجادة حين عبرت الغرفة بسرعة وجلست إلى طاولة الزينة. أضاءت مصباح النيون المركز فوق المرآة وتفحصت ماكياجها ثم سرّحت شعرها بحيوية وتركته ينسدل على كتفيها.

لمست حضن فستانها الحريري الأزرق لما نهضت وقفت وتساءلت إن كانت ياقته مقوسة أكثر من اللازم. كانت بدأت تشعر بالتشنج والاثارة، وكان من العبث إقناع نفسها بأن لا علاقة لماكسويل بمشاعرها هذه.

إن الأمر سخيف فهو غريب بالنسبة إليها، ولكنها لم تقو على أن توقف شعور الترقب المرتعش من مجرد التفكير بلقائه ثانية.

أجفلها النقر على الباب فالتقطت حقيبة السهرة الفضية وهرولت تعبر الغرفة وتنورة فستانها تتمايل حول ساقيها الجذابتين.

كان قلبها يخفق بعنف عندما فتحت الباب ووجدت نفسها تواجه محيا ماكس الوسيم. كان قد حلق شعر ذقنه، وسرّح شعره بعيداً عن جبهته العريضة الدالة على ذكاء، وكانت بدلته البيج الخفيفة وقميصه المفتوح الياقة تبرزان لياقة جسمه الأسمر العضلي.

أرغمها مشهده على أن تتذكر ردّ فعلها عندما رأته أول مرة في ردهة منزل شقيقته، وواجهت الآن مشاعر الانجذاب ذاتها فيما وقفا يقيمان بعضهما البعض، وأخذت نظرته الحاسية تثير فيها التجاوب الأنثوي المحرج نفسه.

«هل نذهب؟» ووقف جانباً ليتيح لها الخروج.

أومأت برأسها إذ خشيت أن يخونها صوتها قبل أن تسيطر على عواطفها العاصية، ولدى خروجها إلى الرواق صلت بألاّ تخونها ساقاها المرتعشتان. لقد لاحظت ابتسامته الساخرة، وداخلها شك في أنه يعي تماماً التأثير الذي يحدثه فيها، وبأنه يستمتع بذلك. لعنة الله عليه!

كان المطعم مزدحماً بالسكان المحليين والسيّاح ولكن رئيس النذل كان ينتظر قدومهما على ما يبدو، فخفّ إليهما، وقادهما إلى طاولة ركنية حيث أضاء الشمعة في وسطها واستدعى نادلاً ليقوم على خدمتهما. واستعرضا لائحة الطعام بسرعة وأعطياه طلباتهما.

كانت كيري متوترة في البداية، ولكنها استرخت تدريجياً. وكان ماكس رجلاً شيّق الحديث فقد انقضت الساعة ونصف الساعة التاليتين بسرعة مذهلة.

«آمل أن تكوني أحضرت معك سائلاً واقياً من حروق الشمس؟» سألها وهما يشربان القهوة، وكان لهب الشمعة المتماوج يضيف ناراً غريبة إلى عينيه حين مدّ يده فجاة وأخذ يمرر اصبعه على وجنتيها قائلاً: «الشمس قوية في هذه الأراضي الصحراوية وبوسعها أن تُتلف وجهاً فتياً وجميلاً.»

فكرت في نفسها، إنه لا يعرفها جيداً ولذلك وجد من الضروري أن يحذرها من مخاطر العيش في الخلاء. إلا أنها لم تتابع الموضوع وحوّلت الحديث إلى صعيد العمل.

«أود أن أعرف المطلوب مني في هذه الرحلة.» ولكن تلك اللمعة الحسيّة التي لمحتها في ابتسامته خضبت وجنتيها فأردفت بسرعة: «أقصد الجانب التصويري.»

سأطلق لك الحرية على ذلك الصعيد، ولك أن تصوّري أي شيء ترينه مثيراً للاهتمام، شرط أن تُرقّمي الصور وتدوّني أسماء الأمكنة في لائحة. إذا كنت اطلعت على عملي فمن شأن ذلك أن يعطيك فكرة عمّا احتاج إليه من صور.»

لم تجب كيري، كانت حسنة الاطلاع على كتبه ولكنها احتارت بين البوح والكتمان.

قال بالحاح وهو يأسرها بعينيه الساخرتين: «أخبرتني أنك قرأت أحد كتبي، فهل قرأته فعلاً أم قلتِ ذلك من باب المجاملة؟»

ما عاد لديها خيار، إذ لا تستطيع أن تبقى صامتة وتحمله على الاعتقاد بأن مواجهتها لكاتب مرموق قد حثتها على إبداء مجاملة كاذبة.

قالت معترفة: «لقد قرأت كتبك كلها.»

«كلّها؟»

«أهدتني جوسي كتابك الأول في عيد ميلادي ثم صرت أبتاع كل كتاب آخر فور نشره.» بدا الاستغراب عليه فابتسمت بكسل وأردفت: «وقد قرأت بعضها مرات عدّة.»

«هل تستمتعين بمطالعة المنشورات السياحية؟» سألها بتهكم، ولكنها تجنبت ابتلاع هذا الطعم بسرعة.

«كتبك ليست مجرد منشورات سياحية ودليل مسافرين، فعندما تكتبُ حول بلد ما فإنك تزوّد القارىء برؤية جلية واضحة للوضع السياسي السائد، وتعرفه إلى شعب ذلك البلد وتقاليده وعاداته، وتفعل كل ذلك بطريقة فذّة. جعلتني أعتقد أحياناً بأني زرت ذلك البلد بنفسي.»

قالت في نفسها، لقد أكثرتِ من الكلام، يا كيري! هل كان

عليك أن تُظهري له إلى هذا الحد، مدى جنونك بكتبه؟

قال وهو يرمقها بتعبير تعذّر عليها فهمه: «لم أتوقع جواباً إطرائياً كهذا، ولكني أعتقد بأنه صادق وأشكرك عليه.»

شبّ بينهما توتر غريب لم تجد له مبرراً. تمعنت في قسماته الصارمة علّها تجد الجواب إلا أن تعبيره بدا جامداً.

سألته لدى انتهائها من شرب القهوة: «متى تريدنا أن نغادر صباحاً؟»

«بعد الافطار مباشرة، الذي يقدم عند السابعة. لذا أقترح أن ننام باكراً.»

نهض واقفاً فاضطرت لأن تحذو حذوه، وشعرت بتقلص غريب في حلقها. عندها غادرا المطعم بصمت واستقلا المصعد إلى غرفتيهما في الطبقة الثالثة.

أوت إلى فراشها بُعيد العاشرة والنصف وأطفأت النور، ولكنها أرقت فترة طويلة، حاولت خلالها أن تجد تفسيراً لتغير مزاجه المفاجىء. هل قالت شيئاً أزعجه؟ قد تكون بالغت في إطراء كتبه، ولكن ذلك لم يكن سبباً كافياً لاتخاذه ذلك الموقف البارد المنكمش. تنهدت بعمق وتقلبت من جنب لآخر، لترى سماء الليل عبر النافذة، وبدأ يداخلها شك في أن ماكس رجل معقد يصعب على المرء أن يفهمه. ثم تركت المسألة عند هذه النقطة واستسلمت للنوم.

www.liilas.com

الفصل الخامس

كان ماكس قد جهز الرانج روفر بكل شيء قد يحتاجا في ليالٍ معينة، عندما يضطران لنصب خيمة في مكان ما في الصحراء.

فهمت كيري الآن لماذا طلب ماكس أن تقتصر أغراضه على أجهزة التصوير وحقيبة ثياب واحدة، إذ لم يكن صندوق الروفر يتسع لحقائب إضافية. وقد رضيت بذلك لأن أغراض ماكس اقتصرت فقط على حقيبة أوراق، وآلة طباعة صغيرة وحقيبة ثياب واحدة، متوسطة الحجم.

لقد تساءلت أكثر من مرة عما إذا كان يستعمل الكتا العادية في التأليف، ولكن كان يجب أن تعرف بأنه بزع و ريب في استعمال الآلة الكاتبة بعد كل تلك السنين التي عم خلالها مراسلاً صحافياً.

عدلت جلستها لترتاح أكثر واسترقت النظر إلى الرج الصامت الجالس خلف المقود. لقد اختارت لبس البنطا ولكنها بدأت تندم على هذا الاختيار، عندما لاحظت نضار ماكس بسبب ثيابه الخفيفة، المؤلفة من قميص قطنية بيض وسروال قصير كاكي اللون وحذاء بنيّ من قماش القنّ تلكأت نظرتها على ذراعه القوية القريبة منها وتملكتها رغ جامحة في لمسها، بيد أنها أشاحت بنظرها عنه وركز بصرها على الطريق المغبرة أمامهما.

بدا صباحاً في حالة نفسية أفضل، وقبل مغادرتهما الفند

قال يطمئنها: «سأتوقف حيثما تريدين كي تلتقطي صوراً، مهما استغرق ذلك من وقت ومهما تكرر التوقف.»

كانت قد اطّلعت على الخريطة التي أعطاها إياها، وكان الطريق المتعرج الذي خطّه عبر الأراضي، قد زوّدها بفكرة كاملة الوضوح حول المناطق الصحراوية التي سيزورانها في الأسابيع الثلاثة المقبلة، وكانا يتجهان جنوباً في يومهما الأول هذا.

لقد باشرا رحلتهما صباحاً بعبور الخوماس هوخلاند، وهي كما شرح ماكس، تلال سفحية تشكل واحداً من العناصر الفيزيوغرافية الرئيسية في مرتفعات داماراالاند المتوسطة.

عندما توقف ثانية لتأخذ كيري المزيد من الصور، قال شارحاً: «هذا التشكل الذي ترين يحتوي على صخر كوارتزي ميبي وصخر انشقاقي، وهو يبني هضبات ترتفع مع الوقت إلى علوّ ألفي متر تقريباً، ومن تلك الجبال ينبع نهر الكويسيب ويصبّ في صحراء ناميب.

ارتقيا الطريق الوعرة بعد حين إلى الهضاب التي ذكرها ماكس، ومع استمرار صعودهما اخذت الأراضي الخشنة تبعث في كيري انسحاراً معيناً. فالثنايا العميقة كانت تنقش بروعة المشاهد الطبيعية القاحلة قرب وادي كويسيب الذي يشكل صدعاً فاصلاً في جرف التلال السفحية، فلم تستطع أن تتصور مشهداً أكثر جمالاً ووحشية مما ترى. كان حرّ الظهيرة لاهباً لدى وصولهما إلى الضفاف الظليلة لنهر التسونداب. فشعرت كيري بأنها سوف تختنق لا محالة ما لم تستبدل بنطالها بلباس أكثر إنعاشاً.

ترجل ماكس من السيارة وتمطى طويلاً ليريح جسمه

المتصلب. راقبت كيري حركاته ولاحظت استمرار ظهره عندما ارتفع قميصه من جراء تمطيه وتساءلت عما إذا كان من عادته أن يُعرِّض كامل جسمه للشمس.

ترجلت بدورها من السيارة، وكان دوسها على الأرض الصلبة الوعرة امتداداً للجهد الذهني الذي كانت تبذله لكي أفكارها المتشردة.

«يجب أن أبدّل ملابسي.» قالت عندما فتح صندوق الروفر ليخرج منه حراماً مطوياً.

علّق ضاحكاً وهو يفرد الحرام تحت شجرة أكاسيا ظليلة «كنت أتساءل إلام ستتحملين هذا البنطال الثقيل؟»

رنت شارحة وهي تسحب حقيبة ثيابها: «أعتقد أن إدارة الفندق ما كانت ستستحسن دخولي إلى المطعم هذا الصباح مرتدية سروالاً قصيراً، وبعد الافطار غادرنا بسرعة شديدة فلم أجد الوقت لأغير لباسي.»

تناولت سروالاً قصيراً أزرق من الحقيبة ووجدت أنها ستضطر لتغيير لباسها داخل السيارة لعدم وجود غطاء شجري كاف، ثم قررت أن الطريقة الأسرع والأسلم هي أن تفعل ذلك حيث تقف.

همت بفك الأزرار دونما تفكير ثم تجمدت أصابعها على الزر الأول.

سألت نفسها، هل تراني جننت لأفعل هذا؟

رفعت رأسها بوجل، وتقلصت أحشاؤها حين رأت ماكس يقف على مقربة، ونظرته الداكنة مسلطة عليها باهتمام.

«أتحتاجين إلى مساعدة؟» سألها بتحرٍ واضح، اضطرت لأن تتجاهله كي لا تبدو أغبى مما كانت عليه.

تأوهت بصمت ولعنت حماقتها المتناهية. لم يعد لديها الآن أي خيار ويجب أن تكمل ما بدأته دونما قصد.

لقد شاركت في العديد من الرحلات بواسطة الدراجات وكان التخييم يحرمها من أية خصوصية، إنما استطاعت أن تتأقلم مع تلك الظروف، وتستطيع الآن أن تتأقلم من جديد، هكذا تجادلت مع نفسها لكي تدعم شجاعتها.

لمعت في ذهنها هذه الأفكار لمعاً ولكنها شعرت بأن ساعات مرّت قبل أن تتمكن من إجابته بصوت ثابت: «سأساعد نفسي إذا تفضلت وأشحت ببصرك بعيداً.»

علّق بسخرية: «أتتوقعين مني بأن أصدق بأنك لم تتعري أمام رجل قبل اليوم؟»

«بلى، فعلت، ولكن ليس في وضح النهار وليس عندما يقف ويحملق بي على هذا النحو.»

فكرت في نفسها، فسّر هذه العبارة مثلما يحلو لك يا ماكسويل هاربر!

امتثل لطلبها وأدار لها ظهره ولكنه مضى يقول بتهكم: «يبدو أنك تفضلين الظلام الذي تظنين بأنه كفيل بإخفاء كل شيء... فثيابك لا تخفي حقيقة قوامك الجميل... لقد اقتنعت منذ أن وقع بصري عليك في منزل شقيقتي بأنك تملكين جسماً رائعاً.»

ارتجفت ركبتاها من جراء كلامه وخشيت أن تفقد توازنها عندما نزعت بنطالها. وسألها بصوت شابه ضحك خفيف: «هل صدمك تصريحي؟»

ارتدت السروال القصير بسرعة وقالت بتوتر: «هل لنا أن نغير الموضوع؟»

«لماذا؟ ألا يروقك أنني حاولت أن أتخيل جسمك عارياً؟»

«لا، لم يرقني ذلك.»

«ألم تتصوري الشيء نفسه بالنسبة إلي؟»

«كلا.»

«أنت تكذبين! هل تسمحين لي الآن بأن أدير وجهي؟»

«أجل.» ثم أقفلت الحقيبة وأعادتها إلى مكانها السابق.

كان ظهرها إليه ولكنها أحست به يتقدم ويقف خلفها فراح قلبها يخفق بدوي، أجفلها وأقنعها بأنه سمعه حتماً.

«ساقاك جذابتان!» علّق عندما استقامت واقفة فتضرج محيّاها خجلاً واحتقرت نفسها لذلك.

«هل هذا غداؤنا؟» سألت لتشغل اهتمامه عنها وهي تشير إلى العلبتين بين يديه.

«أنت تعرفين أنه طعامنا.» ثم حمل العلبتين بيد واحدة واعتقل ذقنها بيده الأخرى فاضطرت لمواجهة نظرته الساخرة وهو يردف: «ما زلت تتوردين بسهولة مع أنك في السادسة والعشرين يا كيري آن تلسون، وهذا يثير في فضولاً لأعرف المزيد عنك... أكثر بكثير مما أعرف الآن... وأظن أنني سأعرف ذلك لدى انتهاء رحلتنا.» تصلبت امتعاضاً من تلميحه الحميم، فابتعد عنها مبتسماً لها باسترضاء وكأنه استشعر ذعرها ثم قال فجأة: «هيا نأكل.»

دفع إليها بعلبة ثم جلس على الحرام. فزفرت كيري بعمق وألم ووعت إذ ذاك بأنها كانت تحبس أنفاسها. تظاهرت بالهدوء وحذت حذوه ولكنها جلست بالتواء بسبب ارتجاف ساقيها. لم تكن قد فكرت بالطعام طوال الصباح ولما فتحت علبة طعامها لم تعرف هل هي جائعة أم لا.

احتوت العلبة البلاستيكية على دجاج مُبهّر، وخبز طازج وسلطة وكرتونة صغيرة من العصير، وقد رُتّب كل صنف بعناية فائقة، الأمر الذي حمل كيري على محاولة الأكل.

«لم أدرك مدى جوعي حتى باشرت الأكل.» علّق ماكس أخيراً لينهي الصمت الذي ران عليهما طويلاً.

رفعت رأسها ورأته يقضم قطعة دجاج بأسنانه البيضاء القوية، ولما نظرت ثانية إلى علبتها لم تقدر على أن تكتم ضحكة الاستغراب والخجل التي انطلقت من شفتيها.

قالت وهي ترمق بقايا الوجبة التي اعتقدت بأنها لن تتمكن من أكلها: «وأنا أيضاً لم أدرك مبلغ جوعي.»

«ضحكتك حلوة، يا كيري. يجدر بك أن تكثري من الضحك والاسترخاء، بدل أن تتعاملي مع الأمور بجدية متناهية.»

لم ترغب بالإجابة، إذ كيف لها أن تخبره بأن انجذابها المستمر إليه يحول دون استرخائها؟ كلا، لن تتمكن أبداً من إخباره. آلمتها الفكرة، وهما ينهيان غداءهما بصمت. كانت صراصير الحصاد تخرقه بنداءاتها الزاعقة من أعالي الشجر.

حدقت كيري بعيداً إلى مجرى النهر الجاف وتساءلت عما إذا كانت الأرض العطشى قد عرفت يوماً متعة المياه الجارية المرطّبة. نظرت إلى ماكس.

سألته وهي تلف خصلة شعر شاردة حول أذنها اليسرى: «ألا يسقط المطر أبداً في هذه النواحي؟»

«إنه يسقط بغزارة في فترات متباعدة، ولذا تموت الأعشاب تدريجياً مع جفاف التربة إلا أن بذورها تبقى هاجعة حتى سقوط المطر التالي. إن النباتات الريّانة تخزن الرطوبة في سوقها أو أوراقها، أما النباتات الأكبر حجماً مثل شجر شوك الجمل فإن

جذورها تنزل في الأرض إلى عمق خمسة عشر متراً، حيث تزودها المياه الجوفية بزاد مستمر حتى في فترات الجفاف.

حملت الكاميرا بعد هذا الشرح وسارت إلى ضفة النهر الجاف لتصوّر الشمس القاسية وهي تكوي أرضاً ظمأى [illegible] سماءٍ زرقاء بلا غيوم.

تابعا الرحلة ومرّا بكثبان صحراوية رائعة المشاهد، وقبل وصولهما إلى مدينة مالتاهوهي بنحو اثنين وسبعين كيلومتراً، توقف ماكس ثانية عند قصر قائم على تل يشرف على الأراضي القاحلة المحيطة به.

قال ماكس وهو يترجل من المركبة: «هذا قصر دويسيب.»

تأملت كيري القصر العالي، ناقلة بصرها بين البرج الرئيسي الكبير والأبراج الصغيرة الجانبية وبين فتحات الرمي المشيدة داخل الجدران الحجرية الضخمة. بدا لها راسخاً منيعاً مثل قلعة، وتساءلت عن تاريخ تشييده.

قال ماكس مجيباً على سؤالها الصامت: «لقد بُني هذا القصر في العام ١٩٠٨ وكان صاحبه باروناً ألمانياً يدعى هانس هينريخ فون وولف، وقد قيل لي إن البناء كلفه مبلغاً لم يقل عن خمسة وعشرين ألف جنيه. ثم أثثه بأفخر الرياش وعاش فيه حوالى خمس سنوات مع زوجته الأميركية ورجع بعد ذلك إلى ألمانيا حيث انخرط ثانية في الجيش ولكنه قُتل في الحرب بعد سنة.»

«شيء محزن.» غمغمت بأسى. ثم سارعت إلى تهيئة الكاميرا لتلتقط بعض الصور قبل أن يحلّ الغروب: «ومن يملك القصر حالياً؟»

«لقد ابتاعته إحدى الشركات وحولته إلى مجمّع لتربية خراف القراكول وقد نجح هذا المشروع بصورة مدهشة. كذلك اهتم أصحاب الشركة بالحفاظ على موجودات القصر ووضعيته الداخلية السابقة.» ثم انتظر بصبر وهدوء فيما كانت كيري تلتقط صوراً للقصر من زوايا مختلفة. وسألها لما انتهت: «هل تلقي نظرة سريعة على داخله قبل أن يقفلوا الأبواب؟»

«بالطبع.»

«إذن أسرعي.» ثم أمسك بيدها وجرّها ركضاً صوب المدخل المظلل بالشجر.

كان الهواء منعشاً داخل جدران القصر الحجرية. وأوحت مواقد القرميد الموجودة في معظم الحجرات بالبرد القارس في فصل الشتاء.

كانت الغرف الاثنتان والعشرون تحوي مجموعة فريدة من الأثاث واللوحات، إضافة إلى مجموعة أسلحة يعود تاريخها إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر. كان التجوال في الصرح يحتاج وقتاً طويلاً ولكن جولة ماكس الزوبعية كانت كافية لأن تلمح كيري ماضيه المجيد، عندما عاش فيه البارون مع زوجته بأرستقراطية حقيقية.

أرادت أن تمكث فترة أطول، إلا أن الحارس كان يهز مفاتيحه بصبر نافد، فغادرا القصر ليتابعا السفر إلى مالتاهوهي التي سيبيتان فيها.

لم يكن الفندق الذي نزلا فيه بمستوى الفندق في مدينة ويندهوك، ولكن كيري لم تتذمر فالغرفة كانت نظيفة والسرير مريحاً، وسرّت بالحمّام المستقل الذي سيمكنها من نزع الغبار الذي علق بجسمها طوال ذلك اليوم الحار وهي على سفر.

www.liilas.com

قدّم لهما مطعم الفندق وجبة عشاء مغذية، بدأت بحساء البازيلاء على الطريقة الألمانية وانتهت بحلوى لذيذة من الفريز مع الآيس كريم. كان كل طبق مطهواً باعتناء، فأكلت كيري حتى التخمة واسترخت كلياً أثناء تناولهما قهوة سوداء من فناجين صغيرة.

التقى بصرها ببصر ماكس عبر الطاولة وكان يراقبها بغرابة شديدة، أثارت فيها شيئاً من القلق. «لماذا تنظر إليّ هكذا؟»

«لقد وعيتُ شيئاً لم يخطر لي أن أفكر فيه من قبل.» هبط بصره لحظة إلى كتفيها البضتين الناعمتين وكانت مرتدية فستاناً أسود ذا حمالتين رفيعتين ثم أردف مبتسماً باعتزاز «أنت امرأة جذابة وذكية، يا كيري، وأعتقد أنني لست أول رجل لاحظ فيكِ هاتين الصفتين، ولكن بسبب انشغالي [illegible] بقبول هذه المهمة لم يخطر لي أن أسأل عما إذا كنتِ ضايقتِ شخصاً ما بجلبك معي وإبعادك عنه ثلاثة أسابيع كاملة.»

تأثرت من اعترافه، إنما لم يغب عن بالها، بأن ذلك، كان أيضاً محاولة هادفة، ليعرف إن كان لديها حبيب ينتظرها في جوهانزبرغ، وابتسمت قليلاً حين تساءلت عما كانت جوسي ستقول لو استطاعت أن تسمع هذا الحديث.

أجابته بهدوء: «لقد ضايقتُ عدداً من زبائني فحسب.»

قال والدهشة تعبر محيّاه الوسيم: «لا بدّ وأن في حياتك رجلاً واحداً، على الأقل، يعنيك أمره أكثر من سواه؟»

«لديّ بعض المعارف من الجنس الآخر، واستمتع بصحبتهم على الصعيد المهني إنما لا يوجد شخص مميز في حياتي.»

«وهل هذا عن عمد أم عن غير عمد؟»

ردّت بابتسامة ملتوية: «قليل من هذا وذاك، فأنا أعيش حياة حافلة بالعمل، وفي سنّ السادسة والعشرين، أصبحت راسخة في عاداتي وعنيدة، ولا أندفع بالتالي إلى إقامة أي علاقة عاطفية قبل التفكير ملياً في جوانبها المختلفة.»

قال ناظراً إليها بتركيز: «وماذا عن الماضي؟ لا بدّ أنه كان لديك شخص مميز.»

«ما الذي يحملك على هذا الظن؟»

أجاب ببسمة ساخرة: «لم تكوني من قبل ناضجة وراسخة في عاداتك ليحول ذلك دون اندفاعك إلى إقامة علاقة عاطفية، ولذا أفترض بأنك أحببت قبلاً. هل أصبتُ الحقيقة؟»

حوّلت نظرها إلى ركن بعيد، وتشاغلت لحظة بمراقبة مجموعة من السياح ثم قالت أخيراً: «أجل، أحببت. لقد أحببته من قبل، وكانت علاقتنا جدّية لفترة.»

«ماذا حصل؟»

تبسمت بتهكم غير معتاد: «نسي أن يخبرني بأنه متزوج وله ثلاثة أولاد.»

«ما أكره ذلك!»

«أجل، كان الأمر كريهاً.» وأردفت بنبرة توكيد: «وسوف يمرّ وقت طويل قبل أن أسمح لنفسي بالتورط في علاقة جدية من جديد.»

«عندما تتكلمين عن إقامة علاقة جدّية أفترض بأنك تريدينها مشمولة بإمكانية الزواج.»

«أنا لم أقترب بعد من مرحلة اليأس، ولكني سأروم الزواج يوماً ما. ألن ترومه أنت؟»

www.liilas.com

«كلا.» أجاب بتوكيد وبلا أقل تردد. «فأنا أستمتع بحياة الترحال وأجدها مرضية على الصعيدين الشخصي والمهني. كذلك أدركت منذ زمن بعيد بأن اختياري لهذه المهنة لن يتلاءم أبداً مع الزواج والانجاب. فالقلة من النساء يمكنهن أن يسعدن مع زوج يمضي معظم أشهر السنة بعيداً عن موطنه. وفي حال تزوجت وأنجبت أطفالاً فلا أود أن أعتقد بأني قد حرمتهم من الحياة العائلية الثابتة بسبب غيابي وعدم وجودي معهم في أوقات احتياجهم لي.»

وجدت كيري في هذا الجواب الوضوح الذي تبحث عنه، كما فهمت معنى تلك النظرة التي كست وجهه عندما قال إن صديقه المصور اضطر للتوقف عن السفر بعدما أنجبت زوجته طفلاً. قد تكون هي أكثر الناس فهماً لطريقة تفكيره، فهي عرفت شعور من يترعرع دون أب، وماكس يعرف ذلك. لماذا إذن يؤلمها الجرح إلى هذا الحد؟

«ألا تحس أحياناً بأنك وحيد؟»

ابتسم بازدراء: «الوحدة حالة ذهنية تُغير نفسها للخمول.»

«قد تكون منخرطاً في نشاط ما وحولك المعارف والأصدقاء وبرغم ذلك تشعر بالوحدة، يا ماكس.»

تعمقت ابتسامته الساخرة وقال نافياً حجتها: «هذا غير وارد بالنسبة إليّ.»

تبلبلت أفكارها تلك الليلة وأرقت طويلاً، تفكر في حوارها مع ماكس وفي صراحته الغريبة في ما يتعلق برغباته. إنه يختلف عن كل الرجال الذين عرفتهم، ولكنه كان مثلهم مستحيل المنال.

ضعفت، تؤنب نفسها بسخط، كم أنا بلهاء وغبية! المرة الأولى تورطتِ مع رجل متزوج، والآن أنت تسمحين لنفسك بأن تهوي رجلاً قرر ألا يتزوج أبداً. يبدو أنكِ ماهرة في اختيار من هم ليسوا في متناولك!

عصاها النوم بعد ذلك وأمضت ليلة قلقة، ظهرت آثارها على وجهها في الصباح ولكن ماكس أحجم عن التعليق من باب اللياقة.

أدركت كيري أن الطريقة الوحيدة التي ستمكنها من الخروج بسلام من تلك الرحلة هي البقاء على موقفها الجدي وتركيز أفكارها على عملها فحسب. ولكن الأمر لم يكن سهلاً بوجوده المستمر بقربها والمستحوذ على تركيزها.

كان يشاركها الاهتمام بكل ما تفعل ويلفت انتباهها إلى أمور يعتقد بأنها قد تهمها. كان يروي لها العديد من الحقائق التاريخية والحكايات المسلية، لكن أحاديثهما كانت تنحرف دائماً نحو الخصوصيات، الأمر الذي كانت كيري تحاول بيأس أن تتفاداه.

أمضيا ثلاثة أيام في بلدة لودريتز ذات الطابع الساحر الحزين، والواقعة على ساحل ناميبيا الصخريّ الجنوبي. لم يكن قد تبقى الكثير من أساطيل الصيد ومصانع التعليب، إلا أن البلدة ظلت مركزاً صناعياً مزدهراً لتعليب الكركند الصخري، وأمضت كيري ساعات شيقة في الميناء مع ماكس، حيث التقطت صوراً للصيادين وهم يفرغون حمولات صيدهم. كان في البلدة وضواحيها الكثير مما يستحق المشاهدة والتصوير وكان برنامج ماكس صارماً، فحرما

www.liilas.com

من جراء ذلك من الاسترخاء الكافي. إنما في يومهما الثا[لث] والأخير وجدا فرصة لزيارة كولمانسكوب... مدينة الأشبا[ح] الآسرة، التي اكتشف فيها الماس، أول ما اكتشف. ووصلا إليها عصراً وقد خلت من السيّاح.

أوقفا السيارة جانباً ليستكشفا المنطقة سيراً على الأقدام. علّق ماكس ملوحاً بذراعه: «منذ العام ١٩٥٦ لم يعش أحد هنا.»

بدا الأمر واضحاً لكيري، فمع مرور السنين عملت الرمال والرياح الصحراوية على إتلاف الأبنية القديمة المهجورة حتى صارت جزءاً من الكثبان المتنقلة.

استولت عليها رهبة المكان، وصفر الهواء في أذنيها وهما يتمشيان بين الأنقاض ويتأملان بقايا الآلات الصدئة التي انطمرت جزئياً بفعل الرمال الزاحفة. كان مشهداً أسر[ها] ولكنها ارتدت عنه حين فكرت بأن هذه الأسابيع مع ماكس ستؤول بدورها إلى النسيان والانطمار تحت رمال الزمن.

«أنت ترتجفين.» وضع ذراعه على كتفيها وقربها م[نه] فشمّت فيه رائحة حروق الشمس، ممزوجة بأريج العطر الذي يستعمله وأردف: «ثمة هالة حول هذا المكان، كثيراً ما تؤثر على الناس بهذه الطريقة.»

«أنا بخير.» وودت لو يُخلي سبيلها ليزول الذعر الذي د[ب] في عروقها لدى اقترابه منها.

«أنت فائقة الحساسية، يا كيري.» رفع رأسها صو[به] فاضطرت لمواجهة عينيه البنيتين. «هل أنت متأكدة من أنك بخير؟»

«أجل، متأكدة.» ورأت في عينيه اهتماماً وشيئاً آخر جعلها تتأكد للحظة بأنه سيعانقها ولكنه ابتعد عنها فجأة.

أتراها تخيلت ذلك؟

لم تشأ أن تتوقف عند هذا الأمر، وبعد ذلك انهمكت في مهمتها التصويرية، فلم يتح لها أن تفكر بأي شيء آخر.

بعد العشاء، آوت إلى فراشها وانتظرت سماع صوت الآلة الكاتبة المألوف، ولكنها انتظرت عبثاً. أقلقها الصمت المخيّم على الغرفة المجاورة ونامت بصعوبة. وبعد ساعة استيقظت مذعورة، على صوت زجاج يتحطم.

تناهى إليها الصوت من حجرة ماكس، فغادرت فراشها قفزاً وقد دخل في روعها أن ماكس سقط مغمياً عليه وقد يكون ينزف بغزارة. ارتدت روبها وركضت من غرفتها وفيما كانت تطرق بابه وتشد حزامها انفتح الباب بقوة.

«سمعتُ زجاجاً يتهشم. ماذا حصل؟ هل أصبت بمكروه؟» انطلقت الكلمات من شفتيها بلهفة فيما فتشت عيناها بجزع عن علامات جرح.

«لقد أوقعتُ الكوب من على منضدة السرير في الظلام... ولم أتضرر.»

غمرها الارتياح، ووقفت كالبلهاء على رواق الفندق الخالي تحدق فيه بعينين ما تزالان مثقلتين بالنعاس... استطاعت أن تتخيل منظرها لحظتئذ، روب قطني باهت وقدمان حافيتان وشعر طويل مشعث ولكنها نسيت مظهرها، حين استوعب ذهنها حقيقة أن ماكس يرتدي فقط سروال رياضة قصيراً أسود. كانت عضلات جسمه القوية توحي بأنه يواظب على التمارين الرياضية يومياً. شعرت بما يشبه الغرق وغمغمت قائلة: «أعتذر عن تصرفي السخيف، ولكني خشيتُ أن تكون آذيت نفسك، لما سمعت تهشم الزجاج.»

www.liilas.com

بدأت تتراجع بخجل، وإذا به يعتقل رسغها بعزم ويجرها إلى داخل الحجرة ويغلق الباب خلفها ثم وجدت نفسها بين ذراعيه وأشعرها عناقه بأنها تدور في دنيا جديدة. وعندما أطلق سراحها أخيراً، تراجعت بضع خطوات واستندت إلى الجدار الصلب ريثما تعود القوة إلى ساقيها.

نظرت إليه بحيرة وسألت بصوت هش: «لماذا فعلت ذلك؟»

ابتسم بازدراء وعلّق وعيناه تحرقان عينيها: «ألم يكن هذا مقصدك الحقيقي من المجيء؟»

غاض الدم من محياها وثابت إلى رشدها، بعد هذه الصفعة المعنوية، التي لسعت عمق كيانها، وقالت له بجفاء: «لقد خيبت أملي يا ماكس، فلم أتصور بأنك من النوع الذي يعجز عن التمييز بين القلق الحقيقي والآخر المزيف.»

ولم يحاول إيقافها عندما خرجت غاضبة إلا أنها أحست بابتسامته المزدرية التي أخذت تكوي ذهنها حتى شعرت بأنها ستبقى موسومة بها طوال حياتها. لقد آلمتها في الصميم، مثلما آلمها افتراضه بأنها ذهبت إلى غرفته لدوافع غير دافع القلق. كانت صادقة عندما قالت بأنه خيّب أملها فيه أما الآن وقد صارت بمفردها في حجرتها فبدأت تشك في ذلك.

لقد تصرف بغرابة بالنسبة إلى رجل متيقظ الذهن لا ينخدع بالآخرين بسهولة، بعد خبرته الطويلة في تمييز الحقيقة. لا ريب أنه تعامى عن الحقيقة، عمداً. ولكن لماذا؟ وتمنت لو تفهم السبب.

الفصل السادس

أوقف ماكس سيارة الرانج روفر على جانب الطريق من دون أن يطفىء المحرك.

لقد غادرا لودريفتر بعد تناول الافطار، وخلال ساعات سفرهما الأربع المنصرمة خيم عليهما صمت متوتر، قطعته كيري بضع مرات كي تطلب منه أن يتوقف لتأخذ صوراً.

هذه المرة لم يتوقف بناء على طلبها. فاسترقت نظرة فضولية إلى جانب وجهه، فرأت فكه القوي ينبض من غضب. وكان يحدق أمامه مقلصاً يديه على المقود، فأدركت أنه مستاء من أمر ما.

انتظرت وهي لا تدري ماذا تتوقع، وبعد بضع لحظات من التوتر التفت إليها.

قال: «بالنسبة إلى الليلة الماضية يا كيري.» ومرر نظرة سريعة على شعرها المعقوص فوق رأسها، وأردف: «لقد تصرفت بتهور وأنا مدين لك باعتذار.»

لم تكن تتوقع اعتذاراً، وطغت عليها روحها السمحاء فقالت: «أظن أنك كنت متعباً ومتعكر المزاج، لذلك... قبلت اعتذارك.»

استدار قليلاً على مقعده ليواجهها ولاح تعبير غامض على محياه: «لم يسبق أن التقيت بامرأة تتقبل الاعتذار من دون أن تطلب له شرحاً.» ثم لمس وجنتها بظاهر يده وخلص إلى القول: «أنت نوع نادر، يا كيري، أنت جميلة ومنطقية وحساسة ونادرة.»

www.liilas.com

سارع إلى استئناف القيادة، موفراً عليها مؤونة صياغة تعليق ذكي على اطرائه.

شعرت بقلق وحرج، فهي لو أرغمت على قول الحقيقة لأقرت بفضولها لمعرفة الدوافع لتصرفاته ليلة أمس. فهل تراه يعرف ذلك؟ هل كان يمتحنها؟ تساءلت وهما يمران بكثبان رملية خفيضة بخميلات بخصل عشبية هنا وهناك.

كانا يسافران جنوباً، وفي طريقهما إلى فش ريفر كانيون مرّا بعدد من مراكز تربية خراف القراكول، فشرح لها ماكس تفاصيل هذه الصناعة المزدهرة وحيث تذبح الحملان الوليدة للحصول على جلودها الناعمة. أنهى كلامه بمعلومة إحصائية: «إن ناميبيا تصدر سنوياً نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون جلد.»

مسكينة تلك الحملان. فكرت كيري، وارتجفت داخلياً حين تصورت نفسها مرتدية معطفاً من فراء تلك الحملان.

بُعيْد الظهر، والحرّ على أشده، دخلا مستوطنة فش ريفر كانيون المخصصة لاستعمال الينابيع الحارة. كان منتجع أي - أيس الشعبي يخلو صيفاً بسبب شدة الحر والتخوف من حصول فيضانات. ولكن ماكس كان حصل على إذن رسمي بأن يخيم على متن الوادي الشرقي.

وجدت كيري وسط تلك الرمضاء نوعاً من الجمال الخشن في الاقفار المحيط بهذا التشكيل الطبيعي الرائع ذي الممرات الضيقة العميقة والفجوات المحززة، فألحت عليها رغبة التصوير، حينما أوقف ماكس السيارة في بقعة مناسبة للتخييم بعدما تعاونا على اخراج الأغراض التي سيحتاجانها من

السيارة قال لها مقترحاً: «اذهبي وشاهدي ما يحلو لك ريثما أنصب الخيمتين.»

«سأساعدك قبل أن أمضي.»

قال ناظراً إليها بتردد ساخر بعض الشيء: «ألديك إلمام بنصب الخيام؟»

«جربني وسترى.» قالت بتحد وهي تمسح كفيها المتربتين بقفا سروالها القصير.

أتما بعد نصف ساعة نصب الخيمتان بإحكام وكان العرق يتصبب منهما. كان عليهما أن يلجا الخيمتين منحنيين إلا أن الداخل اتسع لفراش مطاطي ولفسحة كافية للتحرك.

قال لها: «يظهر [illegible] الراهنة سأكافئك بهذه الطريقة.» أحاط خصرها بذراعه وعانقها، وأضاف: «أنت بارعة، يا كيري.»

«في نصب الخيام أم في العناق؟»

تخضب وجهها خجلاً فور نطقها بهذه الكلمات. ما الذي تملكها وجعلها تطرح هذا السؤال الاستفزازي المثير؟ ثم لمعت عيناه ببريق شيطاني فأدركت بأنه لن يدعها تفلت من دون محاسبة، وقال وهو يشدد قبضته على خصرها النحيل: «أظن بأني أستطيع أن أثني على براعتك في الأمرين معاً، ولكن يجب أن أعانقك ثانية لأقرر في أي منهما أنت أبرع.»

شعرت بمزيج غريب من الخوف والإثارة يأسر مشاعرها. كان بمقدورها أن تفلت من قبضته، ولكن حين أخذت تضرب صدره العريض لتبعده عنها، أتت ضرباتها رفرفات واهية وقد شلت يديها عواطفها المتصارعة.

«آسفة، يا ماكس، لم أكن أقصد...»

ولكنه ألصق وجهها بصدره خانقاً اعتراضها فشعرت بأن

www.lilas.com

حرارة قربه هي أكثر سخونة من أشعة الشمس المسلطة على جفنيها المطبقين.

ولكنها أدركت في الوقت نفسه وجوب التوقف عند هذا الحد وألا تسمح لنفسها بالانجراف إلى شيء لا تريده وليست لديها القدرة على التعامل معه.

قال ماكس وهو يبعدها عنه أخيراً: «لا أستطيع أن أقرر، فأنت مساعدة ماهرة في نصب الخيام ولكنك تزيدين ميل الرجل إلى الإدمان على عناقك.»

لم تكن مصغية إليه في غمرة محاولتها الصعبة للصعود من بئر العواطف التي أسقطت فيها. حنى رأسه وقرب وجهه من محياها لمعانقتها فوضعت يديها على صدره لتمنعه وقالت بهدوء نسبي: «أظن أن الوضع بدأ يفلت من أيدينا.» «أجل، أحسبك على صواب.» صمت كلاهما بضع لحظات ثم استدار عنها وقال مشيراً إلى يمينها: «إذا مشيت إلى ما وراء الأشجار، ستطلين على أجمل مشاهد الوادي، ولكن حاذري عدم الاقتراب كثيراً من الحافة، فالأرض زلقة في بعض الأماكن.»

أحست بوهن في ساقيها واستمر قلبها في خفقان عنيف عندما استدارت وسارت متبعدة عنه لتأتي بآلة التصوير.

لقد عرضت نفسها للخطر بسهولة رعناء، وإذا كانت ستتعامل مع هواها بهذه الطريقة، فبئس المصير الذي ينتظرها، وتملكها الغضب من نفسها.

كانت الشجرة التي أشار إليها ماكس على مبعدة من المخيم ولكن ما أن صارت كيري خلفها حتى نسيت كل شيء إلا الامتداد الطبيعي الرائع، المترامي تحت قدميها والممتد على امتداد النظر.

اختارت بقعة مناسبة لالتقاط الصور، وأمضت بقية العصر جالسة تحت مظلة وارفة، وآلات التصوير في متناولها. كانت مأخوذة بمناظر الوادي السريعة التغير، إذ تبدو متوهجة حيناً وداكنة حيناً آخر، وسرت كثيراً لأنها لم تغادر باكراً، فمع تقدم الغروب اتشحت الجبال بلون توركوازي - أزرق خالطته ظلال داكنة.

كانت كارهة لفكرة العودة إلى المخيم بعد الذي حصل بينها وبين ماكس، ولكن الساعة تجاوزت السابعة ولم تشأ أن تعطيه عذراً كي يأتي ليبحث عنها. تنهدت وهي تلملم أغراضها، وكانت الشمس الغاربة تبدو مثل كرة نارية متوهجة عندما حملت المظلة المطوية على كتفها وسارت عائدة إلى المخيم.

لدى اقترابها من المكان، رأت ماكس يجلس إلى طاولة صغيرة عند مدخل خيمته وكان منهمكاً في الطباعة على الآلة الكاتبة. سمع خطواتها على الحصى فتوقف عن العمل ورفع رأسه ناظراً إليها بحدة وتقطيب فقالت له معتذرة: «أرجوك أن تستمر، لتستغل ما تبقى من ضوء النهار. سأرى ما أستطيع فعله بشأن العشاء.»

مضى يحدق فيها على نحو غريب، فبدأت تظن بأنه لم يسمع شيئاً مما قالت، إلا أنه أومأ برأسه فجأة وعاد إلى عمله.

دخلت خيمتها حيث وضعت أغراضها، وغسلت وجهها ويديها في وعاء ماء صغير ثم انصرفت إلى تهيئة العشاء.

اشتغلت بصمت لم يعكره إلا صوت الآلة الكاتبة وهسيس طباخ الغاز ولكن بصرها ما أنفك يشرد صوب ماكس، وتمنت لو تستطيع أن تتظاهر بأن الأمور بينهما ما تزال على حالها السابقة.

www.liilas.com

لكن لعبة التظاهر يمارسها الصغار لا الكبار، قالت تؤنب نفسها. عليها أن تواجه الحقيقة لا أن تختبيء منها. فكلاهما أشعل في الآخر عاطفة قوية لا يمكنها أن تتجاهلها بسهولة ولا أن تتجاهل تجاوبها الحار لعناقه والذي يشعرها بخزي شديد كلما تذكرته.

لا يمكنها، بأي طريقة أن تمحو ما حصل ولكنها ستبذل كل ما بوسعها لمنع تكراره.

كانت تهيء الخبز والزبدة في النور المتلاشي، عندما وضع ماكس آلة الطباعة جانباً، وجاء بالطاولة الصغيرة إلى حيث كانت تعمل. ثم أشعل مصباح الغاز وحضر الطاولة بصمت، ولكن كيري استشعرت التجاذبات العاطفية المتنقلة من أحدهما إلى الآخر فاعتراها ارتباك.

«رائحة الطعام شهية.» علّق بعدما جلسا إلى الطاولة ثم أردف بعد أن تناول أول لقمة: «ومذاقه لذيذ أيضاً. ما هو؟»

«طبق بسيط، لقد فتحت بضع علب وصنعت يخنة. ولكن إن كنت تريد الوصفة فعليك أن تقرأ ملصقات العلب.»

رفع نظره عن الطبق وابتسم للمرح الذي بدا في عينيها وقال: «أنت شابة رائعة، يا كيري، تُرى كم من المفاجآت الأخرى تخبئين لي قبل أن تنتهي رحلتنا؟»

تلاشت ابتسامتها وأجابته: «أنا معتادة على الحياة في الخلاء، ولا أحاول بتاتاً أن أدهشك، أو أؤثر عليك.»

«وهل زودتك بانطباع بأن هذا هو رأيي بك؟»

«كلا، أردت فقط أن أؤكد على ألا يحصل بيننا في المستقبل أي سوء تفاهم حول الموضوع.»

«فهمت.» وافتر ثغره عن ابتسامة متألقة تذيب العظام

وأردف: «أنت في غاية الجدية، يا كيري. حاولي أن تستمتعي بوقتك وأن تسترخي.»

تسترخي؟ أرادت أن تضحك بشيء من الهستيريا، كيف لها ذلك وتفاصيل ذلك العناق المخجل لا تبارح أفكارها، وفي حين أن جزءاً من كيانها بدأ يتوق إلى عناق جديد؟

ساعدها بعد العشاء وشرب القهوة في تجفيف الأطباق التي غسلتها ثم جلس بقرب المصباح يقرأ الأوراق التي طبعها.

قررت أن تدعه يتابع عمله وتتمشى قليلاً ريثما يحين وقت النوم. أضاء القمر المكتمل طريقها ووجدت نفسها تعود أدراجها إلى الموقع الذي احتلته طوال العصر.

كان مشهد الوادي في ضوء القمر آخاذاً، وشهقت كيري بإعجاب وهي تجلس على صخرة ملساء منخفضة. كان السكون الشامل يلف المنطقة بأسرها فشعرت كما لو أن الزمن عاد بها إلى عصر ما قبل الحياة ووجود الكائنات.

لم تدر كم طال جلوسها وافتتانها بالمشاهد إلى أن سمعت صوت حذاء يطأ الحصى فعادت بحدة إلى الواقع والتفتت خلفها لترى ماكس يتقدم منها.

«الوادي جميل في ضوء القمر، أليس كذلك؟» قال وهو يجلس بقربها على الصخرة.

وافقته قائلة بشرود: «أجل، جميل.»

«كان الاعتقاد السائد بين رجال قبيلة البوشمان أن هذا الوادي كان عرين الوحش الثعبان كونتي - كورو، وأن تعرجات الوادي العميقة تسببت من هياجه العنيف.»

شعرت بأنفاسه الدافئة تلفح شعرها، وأرسل صوته المخملي العميق ارتعاشات ممتعة في كيانها.

مضى يقول شارحاً: «كان الوحش، على ما يبدو، يتلهف إلى الهرب من مطاردة الصيادين، وفيما كان ينسحب إلى داخل الصحراء حفر ندوباً عميقة في الأرض ليتوارى عن معذبيه».

«طالما أدهشني كيف أن القبائل الافريقية تجد في معظم الأحيان تفسيراً أسطورياً لظاهرة جغرافية ما.» تطلعت إلى السماء المرصعة بالنجوم وأردفت مبتسمة: «إن قبيلة كورو-كورو في زمبابوي تعتقد بأن النجوم هي مشاعل تحملها الأرواح الطيبة لتنير طرقهم وهم يشتغلون.»

«إن زمبابوي بلد فاتن، هل زرته؟»

«زيارة واحدة قصيرة.»

ران عليهما صمت طويل فتذكرت كيري كيف تجاوبت بانفعال مع عناقه، ولما اقترب منها قليلاً قفزت واقفة على الرغم منها وقالت: «لقد تأخر الوقت، من الخير أن أعود إلى المخيم.»

قال وكأنه قرأ أفكارها: «بوسعك أن تهربي مني، يا كيري، إنما لا تستطيعين أن تهربي من نفسك.» ثم وقف بدوره وتابع: «إن ما حصل هذا العصر كان شيئاً أراده كلانا، وكلانا لا يستطيعان أن يكفلا بانهما لن يسعيا لايجاد طريقة تجعله يحدث ثانية.»

«أنا... أنا لا أريده... أن يحصل ثانية.»

«أحقاً لا تريدين ذلك؟»

أرادت أن تصرخ به: «كلا»، ولكن ضربات قلبها كانت وصلت إلى حلقها وسدت الطريق على هذه الكذبة قبل أن تصل إلى شفتيها، لأنها حوصرت فجاة بتوق جارف إلى أن تضم نفسها بين ذراعيه. رفع يده ولمس خصلة شاردة من شعرها المعقوص فابتعدت عنه خوفاً من حنينها لقربه.

كيري.»

«إياك أن تلمسني!» قالت بصوت متكسر. وفيما هي تتراجع هاربة من يديه الممدودتين شعرت بتزعزع التراب تحت قدميها.

تملكها رعب بارد حين وعت بانها تتارجح على شفير الوادي، وكادت توشك أن تطلق صرخة ذعر إلا أن ماكس سارع إلى جذبها بيديه الفولاذيتين. ووجدت نفسها ترتطم بصدره الصلب متقطعة الأنفاس. كانت ترتجف على الرغم منها وكان فرحها بالخلاص يوهن أطرافها إلى حد أوشكت معه أن تنهار عند قدميه.

قال متأوهاً ورأسها على صدره: «يا إلهي، يا كيري! كان من الجائز أن تودي بنفسك!»

«انتقتا لقد... لقد تصرفت بغباء.» قالت مغمغمة ثم تملصت من طوق يديه وانطلقت تجري عائدة إلى المخيم بخطوات مجنونة متعثرة، وكأن الوحش كوتتي كورو يطاردها.

انغلست في الظلام وبدلت ثيابها. وكانت تزحف إلى الفراش عندما سمعت ماكس يعود إلى المخيم. كانت ترتجف من آثار الصدمة وتطبق فكيها لتوقف اصطكاك أسنانها، وإذا بشق الخيمة يزاح ويُسلّط ضوء مصباح يدوي على وجهها.

استوت جالسة وأحكمت أطراف الفراش حولها وسألت: «من هناك؟»

«تعلمين جيداً بانني الشخص الوحيد هنا.» ردّ بايجاز على سؤالها الغبي.

«ماذا... ماذا تريد؟»

www.lilas.com

ولج الخيمة ثم جثم عند حافة الفراش، وإذ ذاك فقط رأت الكوب الذي يحمله.

«اشربي هذا.» وضع المصباح جانباً، ولما قرب الكأس من فمها قالت على الفور: «أنا لا أشرب هذا النوع.»

«من الخير أن تفعلي وإلا سقيتك إياه بالقوة!»

لم تشك في تهديده فتناولت الكأس بيد مرتجفة وابتلعت جرعة ثم سعلت حين أصاب السائل اللاسع جدران معدتها. حثها ماكس على تناول كامل الشراب ولكنها شعرت بعد الجرعة الثانية بميل للتقيوء فقالت بتوسل وهي ترتد تقززاً من الرائحة: «أرجوك، يا ماكس، لقد اكتفيت.»

«كيف تشعرين الآن؟»

«أفضل بكثير، شكراً لك.» كانت الحرارة في معدتها تنتشر بسرعة في عروقها مخففة آثار الصدمة، ولكن ماكس ظل يرمقها بشك فأضافت: «أنا بخير. صدقني.» وتمنت أن يتركها قبل أن يعود ذلك التوق ويجعلها ترمي نفسها في موقف آخر لا تحمد عقباه.

فجأة، أمسكها من شعرها وقرّب محياها من وجهه وقال بخشونة وغضب: «إنك تحدثين فوضى في حياتي. فليلة البارحة، وأنا أستلقي مسهداً أفكر بك، أوقعت كوب الماء عن غير قصد ولكني لم أتوقع بتاتاً أن تأتي عروس أحلامي وتطرق بابي. عرفت بأنك هرعت إليّ بدافع القلق على سلامتي، ولكن منظرك الأنثوي المشع لحظتئذ، ضاعف عذابي.»

«آسفة، يا ماكس. أنا...»

«لقد رغبت فيك ليلة أمس.»

«لا تقل ذلك!»

«إنها الحقيقة! إني أزداد رغبة فيك يوماً إثر يوم، إنما لا أستطيع التغاضي عن حقيقة إرغامك على قبول هذه المهمة. لقد بذلت أقصى جهدي للسيطرة على مشاعري إذ بوسعي أن أتخيل ما قد يتبادر إلى ذهنك، ولكني عجزت ليلة أمس عن كبح مشاعري فثار غضبي.»

«وهكذا وجدت مبرراً لتصب غضبك علي.»

«هذا ما ندمت عليه أكثر من سواه.» ورفع وجهها نحوه فاتسعت عيناها بذعر عندما شعرت بأنفاسه الدافئة تلفح فمها. لاحظ ماكس خوفها فأطلق سراحها ثم راقبها بهدوء وهو يجلس مستنداً إلى عقبيه: «مما تخافين، يا كيري؟»

أجابته بصدق فطرت عليه: «لقد أعجبت بمؤلفاتك منذ سنوات طويلة، يا ماكس، وتعلمت الآن أن أحترمك كإنسان.» ثم بسطت كفيها كأنما تتضرع وأردفت: «أعلم أنني لا أستطيع أن أهرب مما حصل هذا العصر، ولكنه جعلني أدرك كيف يمكن لموقف سخيف كهذا أن ينفجر بسرعة فأفقد قدرتي على التحكم فيه، وأنا... أنا لا أريد أن نفعل شيئاً من شأنه أن يفسد علاقتنا الراهنة.»

«لقد اندلعت شرارة بيننا في أول لقاء لنا، ولا تقولي بأنك لم تشعري بها.»

«بل شعرت. ولذلك مانعت كثيراً في قبول هذه المهمة، إذ خشيت أن أعجز عن ضبط مشاعري طوال الأسابيع التي سنقضيها منفردين.» لمع التفهم في عينيه ولكن تلك النظرة القاسية لم تفارق وجهه. فأردفت تقول قبل أن تخونها

www.liilas.com

شجاعتها: «لا أريد أن أقيم معك علاقة عابرة يا ماكس لن يكون لي مستقبل فيها.»

مرر أصابعه على خده وكأنها سددت إليه ضربة غير متوقعة ثم سألها: «وهل من الضروري أن يكون هناك مستقبل؟»

«أجل. فأنا لن أضحي بمشاعري على مذبح علاقة حسية ما لم أحصل على ما يدل إلى أنها قد تؤدي إلى الزواج.»

ران عليهما صمت فابتسمت بأسى. لقد وضعت أوراقها على الطاولة، ولن يكون هناك سوء تفاهم أو اتهامات متبادلة ما دام كل منهما بات يعرف موقفه من الآخر.

أجابها أخيراً بصوت عميق ومسالم: «أنا أقدر صراحتك يا كيري، وسوف أحترم رغباتك. أحسبك تعلمين بأنني لن أتمكن أبداً من إعطائك ما تتوقعين من علاقة حميمة، وقد أخبرتك من قبل بأني أحتاج إلى حريتي، ولذلك ولمصلحتنا معاً... يتوجب علينا، في رأيي، أن نبذل جهداً كي نلتزم قواعد علاقتنا العملية.»

أرقت كيري وقتاً طويلاً بعد انصرافه ولكن الصمت المطبق ومفعول الشراب جعلاها تستسلم للنوم. إنما امتلأت أحلامها بوحوش هائجة وهوات فاغرة، كما رأت ماكس في كل مشهد يقدم لها حمايته القوية، ولكن حينما استيقظت في الصباح التالي، أدركت بأن الكابوس الحقيقي كمن في رؤيتها لماكس كحام قوي لها.

لن يبقى ماكس معها ليبسط جناحه عليها. إذ حالما تنتهي مهمتها سوف يخرج من حياتها مثلما دخلها، عليها أن تتذكر هذه الحقيقة.

الفصل السابع

كان حر العصر ثقيل الوطأة فجلست كيري تتفيأ بظل شجرة أكاسيا وارفة. وحاولت تبريد نفسها بواسطة مروحة يدوية مصنوعة من العشب المجدول، كانت اشترتها من بائعة عجوز بالقرب من غوبابيس، أما ماكس فكان يبدل حزام مروحة السيارة وقد نزع قميصه التماساً للبرودة. تلكأ بصر كيري على عضلات صدره وذراعيه المتموجة وذهنها متجه إلى تذكر ما مر بها خلال الأسبوعين اللذين انقضيا على مغادرتهما فش ريفر كانيون.

بعد عشرة أيام من السفر وقطعهما مسافة تقارب الألفي كيلو متر، وصلا إلى مدينة تسوميب الشمالية ومكثا يومين في أحد فنادقها المريحة ثم سافرا غرباً عبر متنزه إتوشا الوطني إلى حصن ألماني قديم بالقرب من سوسفونتتين في مرج كاوكو.

كانا يتوجهان جنوباً من جديد ليقطعا المسافة الأخيرة في رحلة العودة إلى ويندهوك، وقريباً جداً... سيودعان هذا البلد غير العادي ويرجعان إلى جوهانزبرغ.

تنهدت كيري بأسى وسرحت ببصرها بعيداً إلى سهول دامارالاند المكوية بالشمس.

حرٌّ وغبار ومشاهد رائعة... هذه هي المرادفات التي توصف بها ناميبيا. والتي هي أيضاً بلد المنفسحات العريضة وشروق الشمس الصوفي ومغيبها المذهل.

هذا ليس كل شيء، فكرت كيري وهي تراقب خنفساء تدب ببطء على الأرض، مدحرجة أمامها كرة كبير من الروث لتواريها التراب. فناميبيا صندوق مكدس بالمفاجآت، وقد أحست في مناسبات عدة بشعور طفل في حانوت للألعاب، يركض من اكتشاف جديد إلى اكتشاف ثان ليجد مفاجأة ثالثة تنتظره عند الأفق.

كان سفرها تجربة نفسية رائعة وقد أقرت لماكس بهذه الحقيقة.

آلمها الجلوس على جذع الشجرة القاسي فغيرت جلستها قليلاً. وعادت تنظر إلى ماكس المنهمك في إصلاح سيارة الروفر وإذا بأفكارها تسلك منحى مختلفاً.

فكما تكشف لها البلد شيئاً فشيئاً، تكشفت لها أيضاً طبيعة الرجل الذي عرفته في البداية من خلال كتبه. إن ماكس ذكي ومثقف وصريح بصورة جارحة أحياناً. ويتعامل مع الناس بطريقة مميزة تكسبه ثقتهم واحترامهم، وهو محب ومتفهم بطبيعته ولكن حنانه وشخصيته المعطاء لا تبرزان دائماً إلى الواجهة.

إنه يتمتع بجاذبية حسية قوية.

كفى عن ذلك، يا كيري! زجرت نفسها بسرعة وأخذت تحرك المروحة بتوتر ولكن الحرارة التي تدفقت في عروقها لم تكن لها علاقة بحر الطقس. وعادت تؤنب نفسها، من الخير لك أن تكبحي ذهنك الذي بات يسلك اتجاهاً واحداً في الآونة الأخيرة!

أغلق ماكس غطاء محرك السيارة فجأة بعنف، جعل غرابين يجفلان ويطيران من على شجرة قريبة، فنهضت كيري واقفة وسارت إليه.

«أعتقد أننا لن نتمكن من المبيت في ويندهوك.» قال مقطباً جبينه المتعرق، ثم نظر إلى ساعته وأردف: «إن بلدة يوساكوس هي خيارنا الآخر. ولكنها تبعد عنا نحو مئتي كيلو متر. وأظن أننا لن نصلها قبل الثامنة مساء بسبب وعورة الطريق.»

رأت كيري أملها في الاغتسال والاسترخاء يطير في الفضاء مع الغرابين، وتجهمت قسمات وجهها الرقيقة وهي تزيح خصلة شعر عن وجهها... إذا كان شعرها يبدو فاقد الحيوية، فلا بد أن مظهرها العام يدعو للرثاء، ولكنها وجدت بعض العزاء في مظهر ماكس الذي لا يقل شعره تبعثراً ولا قميصه تغبراً وتعرقاً.

سألته: «هل نتابع السفر إلى يوساكوس؟»

سرحت بصرها في الطريق الترابية التي بدت ممتدة إلى ما لا نهاية وهزت كتفيها بتعب: «إنه خيارنا الوحيد، إلا إذا طاب لنا أن نبيت ليلة أخرى داخل خيمة.»

«الحق معك، فقد أتعبني النوم على فراش قاس مطاطي، ليالي متتالية.» ثم فتح لها باب السيارة وأردف: «لقد أضعنا وقتاً كافياً، فلنمض.»

لم يخطىء ماكس كثيراً في حساباته، إذ انهما وصلا يوساكوس في الثامنة والنصف مساء، وكانا مرهقين وجائعين وتائقين إلى حمام منعش.

انتظرت كيري في الخارج، تحرس السيارة ريثما دخل ماكس إلى الفندق ليرتب أمر الغرف وإيواء السيارة ولكن لما عاد بعد بضع دقائق، قرأت في وجهه المتعب ما دلّ على وجود مشكلة ما.

www.liilas.com

«ما بك؟» سألته حين صعد إلى السيارة وأغلق بابها.

«علينا أن نشترك في غرفة واحدة.»

حملقت فيه لحظة ثم ابتلعت ريقها لتكتم ضحكها: «هذه مزحة ولا ريب.»

استدار إليها وهتف بحنق: «هل أبدو وكأنني أمزح؟ جميع الغرف محجوزة، والوقت متأخر وكلانا بحاجة ماسة إلى الاستحمام والنوم على سرير مريح، فهل لديك أي اعتراض جدي على أن تشاركيني غرفة؟»

كان لديها اعتراضات عدة ولكن معدتها الخاوية وجسمها المنهوك حذراها بوجوب تأجيل هذه الاعتراضات، فقالت متنهدة: «الظروف لا تتيح لي فرصة للجدال.»

حاولت أن تقنع نفسها بأن هناك أموراً أسوأ بكثير من اضطرارها لمشاركة ماكس غرفة واحدة، ولكنها عجزت لحظتئذ عن استحضار أي من تلك الأمور في ذهنها.

انتظرت في ردهة الفندق مع حقيبتيهما، فيما انصرف ماكس إلى إيواء السيارة في المرآب. شعرت بضيق وتوتر، وزاد الأمر سوءاً أن موظف الاستقبال أخذ يرمقها بكثير من الفضول والاهتمام. أتراه أدرك بأنها وماكس غير متزوجين؟

حاول أن يبادلها الحديث فلم تشجعه بتاتاً، وشعرت بارتياح شديد عندما أقبل ماكس عليها بقامته المديدة المألوفة.

استقام الشاب في وقفته وسأل ماكس باحترام: «هل ستتناولان العشاء في المطعم يا سيدي أم أسجل الآن طلباتكما ونرسل الطعام إلى الغرفة؟»

كانا مرهقين ولا قِبَلَ لهما بارتداء ثياب تناسب المطعم

ولذا أجابه ماكس بلا تردد: «سنطلب الآن.» ثم التفت إلى كيري وسألها: «ماذا تودين أن تأكلي؟»

«طبق من اللحم المقلي مع توابعه وإبريق من القهوة الساخنة.»

قال ماكس للموظف: «وطبق آخر لي.» سجل الشاب الطلب ثم أشار لحاجب بأن يصعد بهما إلى حجرتهما.

أثناء ارتقائهما الدرج خلف الحاجب، أحست كيري بارتجاف شديد في ساقيها. هل لأنها متعبة؟ صحيح أنها مرهقة، ولكنها تشعر أيضاً بتوتر بالغ. قالت في نفسها عندما فتح الحاجب الباب وأدخل الحقيبتين.

وقع بصرها، أول ما وقع، على السرير الكبير الحجم، فانتابتها نوبات سريعة متلاحقة من الحرارة والبرودة فيما كان ماكس منشغلاً مع الحاجب، ولكنها استطاعت أن تعبر الغرفة. وكانت تقف أمام النافذة المفتوحة عندما سمعت الرجل يغادر ويغلق الباب خلفه بإحكام.

شعرت بنظرات ماكس تخترق ظهرها ولكنها انتظرت حتى تمالكت نفسها ثم استدارت وسألته: «هل درى موظف الاستقبال بأننا... بأننا غير...؟»

قاطعها بصوت فظ: «لا تخافي. سمعتك ما تزال مصانة. لقد وقعت على السجل باسم السيد والسيدة هاربر. هل أنت راضية؟»

«شكراً.» أحست بتورد وجهها وهي تردف: «أحسبك تعتبرني سخيفة.»

قال وقد لانت قسماته قليلاً: «أنا لا أقل عنك تضايقاً من هذا الوضع، يا كيري، ولا داعي لأن أشرح السبب.»

www.liilas.com

دار على عقبيه ودخل الحمام فيما اشتد توردها وتسارعت نبضات قلبها.

سمعت خرير الماء وهو ينصب في المغطس، وبدا عليها تأمل وتفكير عندما رفعت حقيبتها إلى السرير وأخرجت منها ما ستحتاجه من ثياب. كان ماكس مصيباً في كلامه. إذ لا داعي لأي شرح. فالعواطف المستعرة تحت سطح علاقتهما المهنية لن تحتاج إلا إلى قليل من الدفع، كي تندلع كالنار، واستسلامها للذعر لن يساعدهما على تخطي هذا الوضع المحرج.

تقدم ماكس ووقف وراءها وقد كتمت السجادة وجريان الماء وقع خطواته. لمس ذراعها ليلفتها إلى وجوده فأجفلت وأوشكت أن تقفز خارج جلدها. ثم سخرت من قرارها السابق بوجوب توخي الذعر. تطلعت إلى ماكس الذي أشار إلى الحمام.

قال: «استحمي أولاً.»

«كلا، أفضل أن تستحم قبلي فسوف أغسل شعري وذلك سيستغرق وقتاً طويلاً.»

«لك ما تريدين.» وافقها باقتضاب ثم أخرج بعض الأغراض من حقيبته وعاد أدراجه إلى الحمام، ولكنها لم تقدر أن تسترخي إلا بعدما أغلق الباب خلفه.

رحبت بهذه الفرصة كي تحمل نفسها على تقبل الوضع. وأخذت تستعرض محتويات الغرفة: الستائر المخططة باللونين الأزرق والأبيض، والسجادة الرمادية الفاتحة والخزائن البيضاء وطاولة الزينة البيضاء أيضاً. ثم تساءلت وقد بدأ قلبها يخفق، كيف ستمضي ليلة بكاملها على هذا

السرير العريض من دون أن يلامسها ماكس ومن دون أن ترغب هي في أن يلامسها؟ وكان الله في عونها!

رافق هذا التساؤل المعذب عنصر خوف معين فيما هي تستعرض الغرفة بمفردها.

تنفست بعمق لتحافظ على رباطة جاشها، إذ يتوجب عليها أن تتشبث بقرارها، فبعد بضعة أيام سينتهي أجل هذه المحنة وسيكون ماكس في طريقه إلى أوستراليا وعندئذ تعود حياتها إلى رتابتها المريحة السابقة.

تناهى إليها صوت جريان الماء في مصرف المغطس ثم توقفت الحنفيات ثانية. فحبست أنفاسها لسبب، غمض عليها. ثم أطلقتها بتمهل عندما خرج ماكس من الحمام حاملاً بين يديه ثيابه المستعملة.

كان يرتدي سروال رياضة قصيراً أبيض وقميصاً زرقاء قصيرة الكمين وقد حلق ذقنه ولم يجفف شعره الذي بدا مشعثاً على جبينه العريض، ورائحته عطرة، أيضاً. قالت في نفسها حين مرت به وهي في طريقها إلى غرفة الحمام، فثارت حواسها استجابة لهذا العطر الذي بات مألوفاً لديها.

غسلت شعرها ولفته بمنشفة صغيرة قبل أن تنزل في ماء المغطس الحار. واسترخت بضع دقائق ريثما يزول التعب والتوتر من عضلاتها إلا أن ذهنها التقط حبل أفكارها السابقة ومضى قدماً من هناك.

لقد توقعت أن تعود حياتها إلى عهدها السابق ولكنها تساءلت الآن عما إذا كانت ستجد سهولة ويسراً في استعادة الاستقرار في حياتها كما في الماضي؟

أحست بالشكوك تنهشها بمخالبها. ولكن لم لا؟

www.liilas.com

حاولت أن تحلل الوضع بهدوء ومنطقية وهي تستلقي في المغطس باسترخاء، وأن تنظر إليه من كل الزوايا، ولكن مستقبلها أخذ يبدو كئيباً وخاوياً من دون ماكس وحضوره الكفيل بإضفاء الحيوية والاشراق على حياتها.

تناولت الصابون بتوتر وأخذت تغسل جسمها من أدران عرق وغبار تراكمت عليه سحابة أربعة أيام من السفر.

لماذا تشعر بكل هذه الكآبة من فكرة فراق ماكس؟ فهي لا يمكن أن تكون مغرمة به، إذ أن مشاعرها تجاهه هي مشاعر حسية بحتة أو ما ستسميه جوسي فورة رغبة. أجل... رغبة لا غير! ويجب أن تخجل من نفسها وترتدع!

لكن كيري لم تكن خجلة من نفسها، لأن رغبتها في ماكس ورغبتها في البقاء معه قد أصبحتا مرافقتين لبعضهما البعض، واستولتا عليها على نحو طبيعي جداً حتى باتت تشعر بأنهما لا تقلان راحة عن تنفسها.

لكنها تساءلت، هل أنا مغرمة به حقاً؟ هل يمكن هذا؟ وإذا بصوت هامس في ذهنها يطرح أسئلة تفزعها. لماذا تبدو السماء ملبدة بالغيوم كلما أخفق في إلقاء تحية الصباح عليها، والابتسام في وجهها؟ ولماذا تجد متعة فائقة كلما سمعت صوته في رنينه المخملي العميق؟ لماذا تعتبر أن بوادر عطفه واهتمامه تجاه الآخرين... وتجاهها... أمراً مشوقاً؟

تأوهت وغمرت جسمها بماء الصابون حتى ذقنها. إنها معجبة بالرجل وبكل شيء فيه، إنما لا يعقل أن تكون مغرمة به. بل هي لا تجرؤ على التفكير بأن تغرم به حفاظاً على مستقبلها، وتقضي مصلحتها بأن تتنكر هذه الحقيقة.

طرحت أفكارها جانباً وخرجت من المغطس. كانت متعبة وجائعة، ولسبب غامض سمحت لذهنها بأن يجرجر الوضع برمته خارج منطوقه السليم.

حين ولجت الغرفة كان ماكس يجلس على كرسي عالي الظهر وقد مد ساقيه أمامه. ألقى عليها نظرة شاملة وعابرة، سألها مشيراً إلى الصينية الموضوعة على الطاولة: «هل أنت جائعة؟»

«أكاد أموت جوعاً!» تأوهت وهي تدس ثيابها الوسخة في حقيبتها ثم جلست قبالته إلى الطاولة.

رفعا الأغطية التي تحفظ حرارة الطعام، وكانت أحشاء كيري تهتز جوعاً عندما فردت الفوطة على حضنها.

كان اللحم طرياً وطازجاً، والسلطة طازجة، والبطاطا المقلية البقر مقلياً ومحمصة خارجياً، فأكلت كيري بنهم بعدما اقتصر طعامها في الأيام المنصرمة على المآكل المعلبة.

ارتجفت من برودة الهواء الذي دخل الغرفة فجأة، وفيما هي تفكر في حل، نهض ماكس وأغلق النافذة.

عاد إلى مقعده وقال لها شارحاً: «إن يوساكوس ملاصقة لحافة صحراء ناميب وتبعد عن البحر غرباً نحو مئة وخمسين كيلو متراً، لذلك ترتفع الحرارة نهاراً ويتلطف الجو ليلاً بفعل هواء البحر الذي يهب نحو الداخل.

فسر لها جوابه سبب انخفاض الحرارة المفاجىء ولكن ذهنها كان منشغلاً بسؤال أكثر الحاحاً. «كم سنمكث في ويندهوك قبل أن نعود إلى جوهانزبرغ؟»

«ثلاثة أيام تقريباً.» راقبها بإمعان وهو يرفع إلى فمه آخر لقمة في طبقه ثم سأل: «هل تتشوقين للعودة؟»

www.liilas.com

«أ... أجل.»

«تبدين مترددة.»

صمتت تفكر. ثم أجابت وهي تضع صحنها الفارغ على الصينية: «أجل، ولكني أشعر أيضاً بالأسى كوني سأضطر لمغادرة ناميبيا.»

«صحيح، فكل هذا الجمال الخشن يؤثر على المرء بشكل غريب.»

«إنه أشبه بمخدر.» وضعت أمامه فنجان قهوة واستقرت على مقعدها وأردفت: «لقد شاهدت الكثير في الأسابيع الماضية ومع ذلك أرغب في الاستزادة.»

«وأنا أشعر الشعور عينه.»

علقت مبتسمة: «أنا مسرورة لما قلته، لأني بدأت أظن بأنني مجنونة.»

نظر في عينيها وقال بجدية: «قد يكون كلانا أصبنا بقليل من الجنون.»

«ربما أنت على حق.»

خفق قلبها كعصفور حبيس في قفص صدرها، وتساءلت لماذا لديها شعور غريب بأنهما يتبادلان خصوصيات وجدانية فيما يناقشان موضوع مغادرة ناميبيا ومشاعرهما المتضاربة حولها؟

زجرت نفسها بحدة: لا تكوني سخيفة! فأنت تتركين خيالك يجمح مرة أخرى، وهذا لن يفيدك بشيء.

أنهيا شرب القهوة، فنهضت كيري ثم انهمكت في تجفيف شعرها، فيما حمل ماكس الصينية ووضعها في الرواق خارج الحجرة.

«أي ناحية من السرير تفضلين، يا كيري؟»

فاجأها السؤال وهز أعصابها، فحجبت وجهها بالمنشفة لتخفي خجلها وأجابته بهدوء: «سأنام على الناحية اليسرى.»

«اختيار سليم.»

قال ذلك بمرح ثم اعتقل كتفيها بيديه ودفعها إلى الوراء فارتطمت بحافة السرير وجلست عليه بثقل.

«أظن انك مسرور لانزعاجي.» اتهمته بحدة حين جثم بقربها وراح يجفف لها شعرها.

أجابها: «من النادر جداً أن يجد المرء امرأة في سنك ما تزال تتورد من الخجل. لذلك يطيب لي أن أغيظك.» توقف فجأة عن تجفيف شعرها ورفع وجهها صوبه ثم هتف بانذهاش: «أرأيت؟ إنك تتوردين.»

قالت مدافعة عن نفسها بصوت مهزوز: «هذا الوضع حرج جداً، يا ماكس.»

«إذن تظاهري بأني أخوك.»

«ولكني لا أحذق التظاهر.»

«وأنا لا أحذقه.» جالت عيناه في محياها، واحتبس نفسها حين استقرتا على شفتيها الناعمتين.

قال لها: «أنا لم أخطط لهذا الوضع، يا كيري.»

«أعلم ذلك.» توتر الجو بكثافة فأردفت بمرح: «هل ستساعدني في تجفيف شعري أم لا؟»

أطلق ضحكة عميقة محت التوتر وقال: «بالطبع، اجثي أمامي لتسهلي المهمة علي.»

امتثلت لطلبه، فأخذ يجفف شعرها بالمنشفة وأعلن بعد

www.liilas.com

دقائق: «أعتقد أنه جف.» ثم ألقى المنشفة جانباً وراح يمشط شعرها بأصابعه ليبعد الخصلات الرطبة عن محياها.

خيم عليهما صمت مشحون بالعواطف المكبوتة. وأهاب بها ضميرها بأن تنهي هذا الوضع قبل فوات الأوان.

«أريدك يا كيري.»

«لا تقل... ذلك!»

«ولكنها الحقيقة.»

كان يجب أن تبتعد عنه لحظتئذ ولكنها بقيت حيث هي وقد سحرها كلامه.

حنى رأسه فشعرت بأنفاسه الدافئة تمتزج بأنفاسها، فغابت للحظة عابرة إلى تفكيرها المنطقي السابق وقالت له: «أرجوك، يا ماكس، يجب أن تتصرف بتعقل.»

«أعرف، ولكن كيف لي أن أتعقل وأنا مقتنع بأنك تريدينني بقدر ما أريدك؟ أليس كذلك، يا كيري؟»

«نعم. أنت تعرف هذا، ولكن...» ثم تلاشى صوتها عندما بدأ يعانقها.

«لكن ماذا، يا كيري؟» سألها هامساً وأنفاسه تتلاحق بسرعة.

هتف ضميرها محذراً: أنقذي نفسك بسرعة! قولي شيئاً... قبل أن يفوت الأوان!

قالت وقد عجزت عن تجاهل هذه النصيحة: «أتراك نسيت بأنه من المفروض أن نلتزم قواعد علاقتنا المهنية؟»

أجابها: «لقد وضعت القواعد لتكسر، في حال وافقت جميع الأطراف المعنية على كسرها.»

«ماكس، إنك تذكرني برجل أعمال أخبرني ذات مرة، بأن

سر النجاح يكمن في عدم إبرام أي اتفاقية ما لم تزود بباب للهروب... للحالات الطارئة.»

بدا صوتها لها غريباً وعميقاً. إذ لم يكن من السهل عليها أن تتكلم فيما مشاعرها مضطربة.

أجابها ماكس: «ألا ترين معي بأن هذه حالة طارئة؟»

فكرت بذعر، إنها حالة طارئة جداً! وتساءلت عما ستقوله جوسي لو استطاعت الآن أن تراها وتحدس أفكارها ومشاعرها.

قالت تجيبه: «أعتقد أن هناك موافقة جماعية على استعمال باب الهروب و...» وضاع صوتها.

«ماذا؟» حثها على متابعة كلامها.

«آمل ألا تندم في ما بعد.» ولما ابتعد عنها هتفت: «لا تفعل يا ماكس.»

رد مبتسماً: «لا أعتزم ذلك، يا فاتنتي.»

تمنت لو تستطيع البقاء بقربه مدى حياتها. لو...!

لكن الحقيقة عصرت قلبها بألم، فهي غير قادرة على الاحتفاظ به، إذ ليس هناك سلاسل لتقيده بها إليها، كذلك لا ترغب في تقييده. فقد قالت أمها لها مرة، إذا أحببت شيئاً فاطلقي سراحه.

الحب؟

أهي تحبه؟ أجل... وآلمها في الصميم أن تكتشف في هذه اللحظة بالذات عمق مشاعرها الحقيقي... غص حلقها بفعل دموع لم تجرؤ على ذرفها، ولما ابتعد ماكس عنها أخيراً لم تحاول التمسك به.

تساءلت عما جرى وقد كانا قبل لحظة في غاية التقارب

www.liilas.com

والانسجام... أرادت أن تمد يدها وتلمسه ولكن خوفاً مفاجئاً ردعها.

سألته بصوت واهن: «ماكس؟ ما الخطب؟»

أرخى يديه وسألها بدوره وعيناه مسمرتان في السجادة: «ألم نتفق مسبقاً على أن كلانا راغب في الآخر؟»

«أجل.» وحبست أنفاسها.

«إذن لماذا أشعر شعور النذل؟» ثم استدار صوبها وحدق فيها بعينين يغشاهما الاضطراب. وأردف بإصرار وهو يمرر يده في شعره المشعث: «أخبريني لماذا أشعر وكأنني أخذت شيئاً لا يخصني؟»

أهابت بنفسها بأن تتسلح بالهدوء، وقالت: «لقد أخذت فقط ما كنت مستعدة لإعطائه، وبالمقابل أعطيتني ذكرى غالية سأحافظ عليها ما حييت.»

ضحك بقسوة: «هل من المفروض أن تخفف عبارتك من احساسي بالذنب؟»

«أجل، يجب أن تخففه.»

لم تقدر على أن تضيف شيئاً فقد أسكتها عناقه.

الفصل الثامن

وقفت كيري تحت الرشراش مغمضة العينين وتركت الماء الحار المتدفق يلسع جسمها ويهدىء أعصابها. وهي تفكر في سخرية القدر! لقد تمنت قبل ثلاثة أسابيع أن تعود إلى ويندهوك ولكن بعدما رجعت إليها، تمنت الآن لو تعيش تلك الأسابيع من جديد.

استلقت مسهدة معظم ساعات الليل مصغية إلى تنفس ماكس العميق المنتظم ومستمتعة بلحظات قربه كما لو أنها درر ثمينة. ولكنهما تحاشيا النظر إلى بعضهما في الصباح، ولم يتبادلا إلا الضروري من الكلام أثناء سفرهما من بوساكوس إلى ويندهوك. فما حصل بينهما من الخير أن ينسى، ولكنها عرفت بأنه يشغل بال ماكس مثلما يشغل ذهنها.

حملها الارهاق بعد الغداء إلى غرفتها فنامت بضع ساعات بعد الظهر، في حين خرج ماكس وأعاد السيارة المستأجرة إلى الشركة. استيقظت في الخامسة واستحمت وارتدت ثياب العشاء، وها هي الآن تتساءل، ماذا لو...؟

صارت غالبية أفكارها تبدأ فجأة بكلمتي ماذا لو...؟ ماذا لو استطاعت اقناع ماكس بأن يصحبها في أسفاره؟ ماذا لو أخبرته بأنها ستوافق على علاقة مهنية حميمة غير مشروطة بالزواج؟

ارتعشت ذهنياً وأقفلت صنبور الرشراش. كانت تفكر

www.liilas.com

بقلبها لا بعقلها فضيعت بذلك توازنها. قد تكون تجاوزت الحدود ليلة أمس، ولكن هذا لا يعني أنها مستعدة لنبذ كل المبادىء التي درجت عليها.

حررت شعرها اللماع من الطاقية الواقية وفيما كانت تجفف جسمها شعرت بوجود شخص عند باب الحمام.. أجفلت واحتبس التنفس في حلقها وقد غفلت لوهلة عن إدراك حقيقة انه ماكس، ولكن تعرفها عليه لم يحل دون تورد وجهها بحرج.

غطت نفسها بالمنشفة وسألته بوهن: «كيف استطعت الدخول؟»

«كان باب الغرفة غير مقفل ولما طرقت عليه لم تسمعيني..» ترك العبارة معلقة وهو يشير إشارة معبرة بيده السمراء القوية.

«ماذا تبغي؟»

«وجدت هذه في سيارة الروفر.» وأبرز لها زجاجة شامبو.

«لا بد وأنها سقطت من حقيبتي.»

رمقها بسرعة وشمول، فسرى في عروقها دفء وارتعاش كما لو أنه لمسها بالفعل.

خاطبته بصمت، لا تعذبني، يا ماكس، فقد أتمسك بك هذه المرة.

توتر الجو وتساءلت عما إذا كانت أفكارها مشابهة لافكاره. ولكنه لم يعطها وقتاً لتحدس.

رمى الزجاجة على كرسي وسار إليها بخطوة واحدة طويلة حيث عانقها بحرارة وأسكت احتجاجها.

غمغم: «رائحتك عطرة دائماً، ولن أنساها ما حييت.»

قالت بصوت لاهث وهي تشد المنشفة حولها: «تبدو وكأنك تودعني؟»

«أجل، جئت لأودعك.» وأرخى ذراعيه على جنبيه.

شعرت ببرد وارتجاف، ثم قالت ضاحكة لتتخلص من الرهبة التي أحدثتها كلماته فيها: «كم تحتاج من الوقت لتقول وداعاً؟»

أحجم عن الجواب واكتفى بالنظر إليها طويلاً، مسبباً لها ضيقاً وحرجاً ثم تناول روبها القطني المعلق وقال وهو يفرده أمامها كي تلبسه: «ارتديه، فانت تضجي بالفتنة هكذا.»

«شكراً لك.» تمتمت بارتجاف وأولته ظهرها ريثما ارتدت الروب وشدت حزامه على خصرها.

«طرأ تغيير على الخطة.»

استدارت إليه وعجزت عيناها عن اخفاء رهبتها: «ماذا تعني؟»

«تلقيت رسالة من مساعدي في أستراليا، قال فيها: إنه شكل طاقم تصوير وسيتم الاعداد لمباشرة تصوير الفيلم الوثائقي يوم غد.»

شحب وجهها وشعرت كما لو أن رصاصة قد استقرت في صدرها. كانت تعلم أن هذه اللحظة سيحين وقتها، وقد تهيأت لها نفسياً، ولكن... بهذه السرعة؟

«أيعني هذا انك ستغادر فوراً؟»

«أجل.»

«ولكنهم لم يعطوك المهلة الكافية للسفر، أليس كذلك؟»

«صحيح، إلا اني استطعت الحصول على المقعد الوحيد

www.liilas.com

المتوافر في الطائرة التي ستقلع هذه العشية إلى جوهانزبرغ وسوف أغادر صباحاً إلى بيرث.» استقر بصره لحظة على يدها التي رفعتها إلى عنقها وأردف بوجوم: «لا موجب لأن تغيري برنامج سفرك، ولكن إذا آثرت التعجيل بالعودة فسوف يقوم موظف الاستقبال بالترتيبات اللازمة مع شركة الطيران.»

بدأت تشعر بوهن من الاحتجاز في غرفة الحمام الضيقة فمرت بماكس بسرعة ودخلت غرفة النوم، فلحق بها، وشعرت بعينيه تتابعانها حين عبرت الحجرة، حافية القدمين ووقفت عند النافذة.

سألته وهي تحدق كالعمياء إلى المدينة: «هل سيطول مكوثك في أستراليا؟»

«ستة أشهر... ربما أكثر إن [illegible].»

شعرت فجأة بجفاف في فمها وكأنه جفاف صحراء ناميب. غبية! حمقاء! سيغيب ستة أشهر؛ ولكن ما هم لو غاب عاماً أو دهراً؟ صحيح أنهما أمضيا معاً ثلاثة أسابيع كاملة، وليلة حميمة عابرة، ولكنها كانت تعرف من البداية بأنه لن يمنحها أكثر من ذلك، وإذا كانت تتعذب الآن، فاللوم يقع عليها وحدها.

رطبت شفتيها بطرف لسانها وابتلعت ريقها لتزيل غصة حلقها، ولكنها استدارت وواجهته بهدوء: «متى تغادر طائرتك؟»

«في الثامنة والنصف.» وأخرج يده من جيب بنطاله الكاكي لينظر إلى ساعته.

توسلت إليه بصمت: ماكس، خذني معك!

أشاح عنها متصلب الفك كما لو أنه سمعها، فآلمها رفضه مع أن استرحامها الفاضح لم يخرج عن نطاق ذهنها.

قال باقتضاب قبل أن يخرج: «سأنجز حزم ثيابي ولكني سأراك قبل أن أرحل.»

تنفست باختناق ثم جلست بتثاقل أمام طاولة الزينة. لقد أملت بأن تمضي معه في ويندهوك ما تبقى لهما من أيام قليلة قبل أن يمضي كل منهما في سبيله، ولكن الأحداث تدافعت وتسارعت باتجاه لحظة الفراق المرتقبة.

ربما كان ذلك لخيرها، فساعات الوداع الطويلة تضاعف الألم، ولكن لماذا بكل هذه السرعة؟

عقصت شعرها فوق رأسها وارتدت الفستان الأزرق الذي ارتدته ليلة وصولهما إلى ويندهوك قبل ثلاثة أسابيع، ثم لطخت شحوبها بقليل من أحمر الخدود. ربما عجزت عن محو نظرتها المسكونة بشبح الفراق والتي كانت تغير لون عينيها من الأزرق الصافي إلى البنفسجي الداكن.

وضعت لوناً مرجانياً... زهرياً على شفتيها وهمست بصوت عال من دون أن تعي: «أواه، يا ماكس! ليتك استطعت أن تحبني قليلاً، لكنا تمكنا من ايجاد حل.»

التقطت ساعة يدها وثبتتها حول رسغها النحيل وكانت تشير إلى السابعة إلا ربعاً... بعد قليل سيغادر ماكس إلى المطار. وقفت وتفحصت صورتها في المرآة، بدت هادئة ومتزنة وكانت في الحقيقة مخدرة الحواس. مشاعرها الداخلية مكظومة باحكام ولكنها آلت على نفسها ألا تدعه يرى كم كانت غبية.

لم تفاجئها الخبطة القوية على الباب، إذ كانت تتوقع قدوم

www.lilas.com

ماكس لتوديعها ومع ذلك انتفضت ضمنياً لحلول لحظة الفراق.

فتحت الباب، فحملقا بصمت في بعضهما البعض لحظات طويلة ثم انتحت جانباً كي يدخل. لاحظت انه يرتدي بدلته البيج الخفيفة وقميصاً زرقاء مفتوحة الياقة ولكن اهتمامها تركز على العرق الصغير الذي كان ينبض بقوة عند زاوية فمه. وتساءلت عن السبب وهي تغلق الباب بلطف.

تأملها بنظرة بدت كسولة وقال بصوت حمل نبرة غريبة: «تبدين رائعة، يا كيري. كان بودي أن نتعشى معاً هذه الليلة.»

انقبض صدرها وضاقت أنفاسها، وخشيت أن تنفجر بالبكاء فتذل نفسها أمامه، ولذا سارعت إلى استيضاحه بنبرة مهنية جدية: «إلى أين تريد أن أرسل الصور بعد تحميضها؟ ستكون شاكراً إذا استطعت إيصالها إلى منزل شقيقتي في ضاحية موتون.» قال وهو يزيح ستائر النافذة ليحملق إلى الشارع المنار، وتابع: «سوف تحتفظ بها كاتلين لحين عودتي. هلا فعلت ذلك؟»

«بالطبع.» غص حلقها بفعل الدموع التي لم تجرؤ على ذرفها، وخيل إليها أن وجيب فؤادها المدوي يتردد في سكون الغرفة، وأردفت: «يسرني أني حظيت بهذه الفرصة التي أتاحت لي أن أشاركك حياتك العملية لفترة زمنية قصيرة، والآن سيتضاعف تقديري لمؤلفاتك.»

أعاد الستائر إلى مكانها بغضب، وأوشكت أن تفقد رباطة جأشها عندما واجهها بنظرة مركزة وثاقبة: «هل أنت نادمة، يا كيري؟»

أدركت أنه يشير إلى علاقتهما الحميمة والقصيرة،

فتوردت وجنتاها ولكنها لم تزح بصرها عن بصره: «كلا، لست بنادمة بتاتاً.»

حملق بها، وعاد ذلك العرق الصغير ينبض عند زاوية فمه. بدا وكأنه عالق وسط محنة عاطفية. أتراه لا يحبذ فكرة اضطراره إلى تركها؟ هل سيغير رأيه يا ترى، ويأخذها معه؟ ثم عنفت نفسها على سخافتها، ساحقة بذلك بصيص الأمل في مهده.

قال أخيراً، منهياً الصمت الذي خيم عليهما: «لقد سرني أيضاً أن أحظى بمعرفتك، وبالعمل معك، يا كيري.»

«إذا لم نحترس فسيتطور حديثنا إلى مناظرة في الإعجاب المتبادل!» كانت تحاول أن تصرف اطراءه بنكتة، ولكن ابتسامتها التوت بأسى وارتعشت شفتاها.

قال لها بهدوء: «بيننا نملك وقتاً أطول، يجب أن أمضي، أتعرف.»

أرادت أن تلمسه وتشعر بذراعيه حولها مرة واحدة فقط، قبل أن يرحل عنها بعيداً، ولكنها تذكرت أن ذلك سيطيل أمد عذابها.

مدّ يده ليلمسها إلا أنه أرخاها قبل أن تصل إلى وجهها وقال: «الوداع، يا كيري.»

أجفلت داخلياً ازاء نبرته الحاسمة الخاوية وودت لو أن تهتف: لا تقل وداعاً وكأننا لن نرى بعضنا ثانية! بيد أن الكلمات ظلت محبوسة في قلبها عندما أولاها ظهره وغشيت الدموع عينيها عندما أغلق الباب خلفه.

فكرت كيري في نفسها: اليوم الأحد، وغداً سيبدأ أسبوع جديد وبداية جديدة لحياتي.

لو أنها نظرت من نافذة المطبخ لرأت الشمس الغاربة تصبغ السماء بلون زهري ناعم، ولكنها تقصدت الإشاحة عن هذا المشهد كيلا يذكرها بساعات مغيب الشمس الرائعة التي راقبتها مع ماكس، فما زالت هذه الذكرى تدفعها إلى البكاء.

لقد عادت إلى جوهانزبرغ في اليوم نفسه الذي سافر فيه ماكس إلى استراليا، ومنذ خمسة أيام لم تر أو تكلم أحداً، باستثناء كالفن ماكالام الذي خابرها على أمل أن تكون عادت من رحلتها. وقد عرض عليها مهمة جديدة ولكنها رفضتها.

لم تكن على استعداد لأن تفعل أي شيء بناء لحياتها، وكان مزاجها لا يزال ينقلب بين نوبات الرثاء لنفسها والبكاء على حظها العاثر.

أدركت الآن أن العمل هو السبيل الوحيد لاسترداد توازنها العاطفي. عليها أن تغرق نفسها في العمل، وقد تتناسى مع مرور الزمن بأنها وهبت حبها لمن لم يكن راغباً فيه.

أيقظها رنين الجرس من حلمها النهاري. من الزائر يا ترى، ولا أحد درى بعودتها سوى كالفن الذي لم يزرها أبداً في بيتها. رن الجرس ثانية وبإلحاح، فتحاملت على نفسها ونهضت بتثاقل.

فتحت الباب وإذا بجوسي تدخل مهتاجة وعيناها تقدحان شرراً أخضر. وسألتها بحنق: «لماذا لم تهاتفيني وتعلميني بعودتك، بدل أن أعرف ذلك من الآخرين؟»

«كنت مشغولة.» وأردفت تقول في نفسها: كنت مشغولة بالبكاء والنحيب والانغماس في شقائي.

«هل انشغلت لدرجة أعاقتك عن الاتصال بصديقة قديمة يهمها أمرك؟»

اضطرت كيري للاقرار بهزيمتها وقالت من باب الاعتذار: «لقد صنعت قهوة مصفاة، فهل تودين مشاركتي شربها؟»

لانت جوسي قليلاً وابتسمت شبه ابتسامة: «سأرحب بفنجان من قهوتك.»

تقدمتها كيري إلى المطبخ وأضاءت النور قبل أن تسدل ستارة النافذة على وهج الغروب المتلاشي في السماء المعتمة كي لا تفكر بماكس.

«حسناً؟» حثتها جوسي بفضول بعدما جلستا، متقابلتين إلى الطاولة وأمامهما القهوة الفواحة.

«حسناً ماذا؟» ردت كيري تهرباً، وهي تضم شفتيها إلى صدرها مثل طفل أناني يرفض التنازل عن لعبته المفضلة لصديقه.

شرحت جوسي بصبر نافد: «أريد الاطلاع على أخبار رحلتك.»

«ناميبيا بلد ساحر.»

شعرت جوسي بالضيق والفضول معاً وسألت وهي تسند مرفقيها إلى الطاولة: «أهذا كل ما لديك من كلام؟»

«سأريك الصور بعد تحميضها.»

ردت باستخفاف: «شكراً!»

أخلدت كيري إلى صمت مذنب، الأمر الذي جعل جوسي تحس بوجود مشكلة ما فأخذت تحثها بهدوء: «هيا، يا كيري، أنسيت بأني صديقتك التي وثقت بها دوماً وأطلعتها على أسرارك؟»

«ليست القضية أني لا أثق بك، يا جوسي، ولكنني...»

نظرت إلى فنجانها وتأملت الضوء المائج على سطح القهوة ولكن وجه ماكس تجسد أمامها. فأغمضت عينيها وشدت

www.fiilas.com

على جفنيها بأصابعها لتطمس تلك الصورة. إلا أنها ظلت محفورة في ذهنها. وأردفت بصوت أبح: «الأمر أعمق بكثير، ولذا يصعب عليّ التكلم حوله.»

صمتت جوسي طويلاً ثم سألت: «لقد انتابني توتر شديد خلال غيابك، فهل كان له ما يبرره؟»

«فعلت شيئاً في غاية السخف.» اعترفت كيري أخيراً وأردفت متنهدة بإعياء: «وقعت في حب ماكسويل هاربر.»

«يا إلهي! وهل يعرف ذلك؟»

«أنا لم أخبره. إن كان هذا ما تقصدين، ولكنه ليس غبياً وأخشى أنه خمن.»

«أتظنين أنه من الجائز أن يكون مغرماً بك بدوره؟»

«كلا.» وضحكت كيري لأول مرة منذ أيام. إلا أنها كانت ضحكة مفعمة بالمرارة والألم: «تعلمين مثلما أعلم أن الرجل عندما ينجذب حسياً إلى امرأة ما، فهذا لا يعني بالضرورة انه ملزم بحبها.»

أشاحت جوسي بنظرها بعيداً وكأنها لم تحتمل رؤية الألم العاري في عيني صديقتها. «هل سترينه ثانية؟»

عضت كيري شفتها المرتجفة: «أشك في ذلك. فهو سافر إلى استراليا منذ اسبوع وسوف يعمل هناك ستة أشهر أو أكثر.»

«ماذا يحول دون انضمامك إليه؟»

«لا يسعني أن أذهب ما لم يوجه دعوة إليّ، وهو لن يفعل ذلك، ولذلك لا جدوى من ملاحقة العلاقة.»

استوضحت جوسي باستغراب: «وهل ستجلسين مكتوفة اليدين وتتركين هذا الرجل ينسل منك؟»

ردت كيري وهي تحدق بكآبة في قهوتها: «لا أملك خياراً فهو أفهمني بوضوح بأن الزواج لن ينسجم مع حياة الترحال التي يعيشها.»

«في رأيي أن مهنتك كمصورة فوتوغرافية من شأنها أن تنسجم تماماً مع مهنته.»

افتر ثغر كيري عن ابتسامة حزينة: «هذا ما خطر لي أيضاً، ولكنه لم يبادلني حبي كي نناقش هذه النقطة.»

قالت جوسي بإصرار: «إذا كان ثمة أمل بسيط بأن يحبك، فعليك أن تقنعيه بتغيير رأيه.»

«لا أريد أن أرغمه على أي شيء، يا جوسي، وإذا كان سيغير رأيه فيجب أن يقرر ذلك بنفسه.»

رشفت كيري قهوتها واضطرت للإقرار بأنها تشعر بتحسن بعدما أطلعت جوسي على كل شيء. لا، هذا غير صحيح، فهي لا تستطيع أن تطلعها أبداً على تصرفها الحميم المخجل تلك الليلة في بوساكوس.

تأوهت في سرها، آواه، يا ماكس! هل تسهد الليالي، وتتذكرني، أم انك نسيتني؟ امتلأت مقلتاها بدموع ساخنة حاولت أن تحبسها إلا أنها تسللت من بين أهدابها وتدحرجت على خديها. مسحتها بغضب بظاهر يدها وتمالكت نفسها ولكن حينما رفعت بصرها رأت جوسي تراقبها بحزن وأسى.

«آسفة، يا كيري، أشعر بأني الملومة عما حدث.»

«كلا، يا جوسي. فأنا دخلت الوضع بعينين مفتوحتين وكنت أعلم بأن هذا قد يحصل، وعندما حصل لم أقم بأي محاولة لصده.»

«هذا ليس مجرد افتتان قوي فأنت تحبينه بالفعل.» قالت

جوسي وكأنها تستوعب خطورة الوضع لأول مرة. وأردفت: «تحبينه إلى درجة أنك تدعينه يخرج من حياتك من دون أن تحركي اصبعاً لايقافه.»

فكرت كيري طويلاً بعد انصراف جوسي بكلامها الذي ما لبث أن أيقظ في ذهنها ذكرى معينة كانت لاحت لها بغموض تلك الليلة في بوساكوس. ففي إحدى المرات قالت أمها لها شيئاً لم تفقه معناه كطفلة أما الآن وقد استذكرته حرفياً، استطاعت أن تدرك ما حاولت أمها أن تفهمها إياه.

إذا أحببت شيئاً أطلقي سراحه. وإذا عاد إليك، فهو لك، وإن لم يعد فهو لم يكن مكتوباً عليك.

دعت إلى الله بأن يعود ماكس إلى حياتها، ولكن إذا لم يعد، عليها أن تتقبل الأمر الواقع بأن هذا الحب لم يكتب لها.

أوقفت سيارتها البيجو على الممر الترابي لمنزل آل ستافورد ونظرت بسرعة في المرآة الصغيرة لتتأكد من حسن مظهرها، ثم ترجلت من السيارة وسارت إلى مدخل الدارة المهيب.

كان ماكياجها أثقل من المعتاد كونها ستقابل كاتلين ستافورد، بيد أنها لم تستطع أن تخفي السواد تحت عينيها والذي بات لوناً يلازم بشرتها.

«أنت تعملين كثيراً وتنامين قليلاً.» بهذه الكلمات عنفتها جوسي منذ بضعة أيام، وكانتا تتناولان الغداء في المدينة. ولم تنكر كيري ذلك.

العمل المتواصل كان خلاصها الوحيد خلال الشهرين المنصرمين. لم يكن علاجاً شافياً إلا أنه ساعدها كثيراً، وقد

آثرت أن تضيف ست ساعات، وأحياناً ثماني ساعات إلى دوامها اليومي المعتاد على أن تمضي لياليها في أرق وليس لها من سمير سوى أفكارها المعذبة.

ارتسمت على شفتها ابتسامة ملتوية ساخرة حين ارتقت الدرجات الرخامية وقرعت الجرس، وفكرت أن ساعات الشغل الطويلة قد تكون مرهقة جسدياً إلا إنها مريحة مادياً.

استقبلتها خادمة ترتدي زي العمل وقالت مشيرة بتهذيب إلى أحد الأبواب داخل البهو: «السيدة ستافورد تنتظرك في غرفة المكتبة، يا سيدتي.»

لدى دخولها الحجرة، نهضت كاتلين ستافورد من على مقعد مجاور لجرة اغريقية طويلة وقالت: «يسرني أنك دقيقة في مواعيدك.» ثم أشارت إلى صينية موضوعة على طاولة منخفضة قريبة من مقعدها وأردفت: «الشاي طازج وجاهز للسكب.»

كانت ابتسامتها الدافئة شديدة الشبه بابتسامة ماكس، فشعرت كيري بألم يمزق أحشاءها ويعيقها عن نطق الجواب المهذب الذي صاغته في ذهنها، ثم استردت بعضاً من هدوئها وقالت: «طلب ماكس أن أودع هذه الرزمة لديك. يا سيدة ستافورد.»

«أوه، نعم، الصور. كم أحب أن ألقي عليها نظرة متلصصة ولكن تعليمات ماكس الصارمة نصت على ألا ألمسها حتى يراها هو، ويعلم الله متى سيكون ذلك.» كشفت كاتلين عن هذه المعلومة من باب المحادثة وهي تأخذ الرزمة من كيري لتودعها درجاً في طاولة مكتب من خشب ماهوغاني وتقفل عليها. ثم استطردت تقول: «أرجو ألا يكون ماكس عرضك للكثير من قسوة الحياة في الخلاء، خلال وجودك في ناميبيا؟»

«أنا أستمتع بعيش الريف الخشن كلما سنحت لي الفرصة.» اعترفت والألم يعتم لون عينيها حين تذكرت ليالي سهرها مع ماكس تحت سماء ناميبيا المزدانة بالنجوم.

«إذن، أنت وماكس من صنف واحد.» استقامت في وقفتها ودارت حول المكتب وأردفت مبتسمة: «لا بد أنكما عملتما معاً بانسجام.»

«أجل.»

«اجلسي أرجوك.» وأشارت إلى مقعد ثم جلست على مقعدها السابق وشرعت تسكب الشاي في فنجانين من البورسلين مزينين بورود ناعمة. كانت كيري قد أعجبت بها منذ لحظة دخولها الغرفة: «هل تأخذين حليباً وسكراً، يا كيري؟»

خاطبتها باسمها الأول بحميمية سهلة أثارت استغراب كيري وسرورها في آن، وقالت: «أتناول الشاي مع الحليب إنما بلا سكر، شكراً لك.»

«أرجو أن تعذري لي صراحتي، فأنا أعتقد بأنك أكثر نحولاً مما كنت عليه في آخر مرة رأيتك.» بدا القلق واضحاً في عينيها وهي تناول كيري فنجان الشاي. «هل مرضت مؤخراً؟»

ردت بخفة لتتخلص من السؤال: «كنت مشغولة كثيراً في الآونة الأخيرة.»

أحجمت كاثلين عن متابعة الموضوع، وقالت: «أنا أقضي معظم أوقات فراغي في هذه الغرفة.» ثم شرحت عندما رأت كيري تجول ببصرها في الجدران المرصوفة بالكتب: «أنا

أستمتع بالمطالعة، وهذه الغرفة قابلة للتكثيف، فهي دافئة ومريحة في الشتاء، وطلقة الهواء في الصيف.»

رأت كيري في عينيها الخضراوين - الرماديتين ما يوحي بأنها مستوحدة، فسألتها: «هل تعيشين بمفردك، يا سيدة ستافورد؟»

«أرجوك، خاطبيني باسم كاثلين. أجل، أنا أعيش بمفردي، وأقر بأن هذا المنزل كبير جداً على ساكن واحد ولكني لا أملك الشجاعة لأن أبيعه، و...» غزت عينيها نظرة من استعاد ذكرى ما، ثم تابعت: «إنه قديم ويحوي العديد من الذكريات ولذا أغدو خاوية عاطفياً إن فارقته.»

«ماذا عن ابنتك وصهرك؟ ألن يوافقا على الانتقال كي يسكنا معك هنا؟»

«لقد خطر ذلك لي ولكني أعرف كيف يشعر المرء عندما يكون شاباً وفي بداية زواجه، فهو يرغب في أن يكون له بيت خاص يبني فيه ذكرياته الخاصة.»

«أحسبك على صواب.» وافقتها كيري بحزن أوجده توقها إلى شيء تعرف بأنها لن تحصل عليه أبداً.

كانت كاثلين ستافورد امرأة تتصرف على سجيتها، يطيب معها الحديث، فطال بهما المقام والكلام في غرفة المكتبة وشمس العصر تغمر الغرفة. وبعد قليل لاحظت صورة لماكس كانت موضوعة ازاء الحائط المكسو بالخشب بين النافذتين العاليتين. كان في مقتبل العمر آنذاك وأكثر نحولاً، ولم تكن قسوة الحياة في جبهات الحرب والسياسة قد مست بعد قسماته الوسيمة.

لاحقت كاثلين نظراتها فعلقت قائلة: «لقد أخذت هذه

www.liilas.com

الصورة لماكس قبيل رحيله إلى لندن، وعلى ما أظن كان آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره، شاباً انفعالياً ومفعماً بالحيوية، ويعتقد بأنه قادر على تغيير العالم بكتاباته الصحافية الجريئة. بيد أن خيبته كانت مريرة وقاسية ولا يزال يحمل ندوبها.»

امتصت كيري هذه المعلومات كاسفنجة عطشى من دون أن تزيح بصرها عن عينيه الداكنتين الباسمتين، شعرت بقبضة ألم صلبة تستقر في وسط صدرها فتعيقها عن التعليق.

مضت كاثلين إلى القول وقد بدت غافلة عن ضيق كيري: «لقد عرفت الآن لماذا ينظر ماكس إلى عمله بعين التقدير والإعجاب. فالصور التي التقطتها في زفاف ساري – جو كانت كلها آية في الجمال، الأمر الذي أوقعها في حيرة لاختيار الصورة الأجمل لتكبيرها.»

انتزعت كيري بصرها عن صورة ماكس وبذلت جهداً بالغاً لاستجماع شتات افكارها الا أن فمها ظل جافاً بسبب توترها ثم سالت على الرغم منها: «هل اتصل بك ماكس؟»

«تلقيت ثلاث مخابرات هاتفية من استراليا في الشهرين المنصرمين وهو عادةً لا يتصل إلا في ما ندر، ولكنه قال في مخابرته الأخيرة بأنه سيتوقف عن الاتصال فترة معينة كونه سينتقل إلى منطقة تتعذر فيها الاتصالات الهاتفية.» ثم ابتسمت لكيري وقالت مشيرةً إلى صينية الشاي: «هل أطلب ابريقاً آخر من الشاي؟»

«لا، شكراً.» ثم نهضت بسرعة وأردفت: «لم أكن أعتزم البقاء كل هذا الوقت، ويجب أن أمضي.»

www.liilas.com

أومأت كاثلين ونهضت بدورها لتشيعها إلى باب المنزل: «إنها فرصة سعيدة للتعرف إليك، يا كيري. لقد استمتعت برفقتك وآمل أن أراك قريباً.»

لا، ليس قريباً، يا كاثلين، فكرت كيري، حين أدارت سيارتها ثم انطلقت بها على الممر. لقد شعرت بود تجاه كاثلين ستافورد ولكن وجودها معها أرغمها على التفكير بماكس وليس باستطاعتها في الوقت الحاضر أن تفكر فيه من دون أن يمزق الألم والحنين أحشاءها.

الفصل التاسع

«أربعة أشهر» زعقت كيري بغضب ولده يأسها. «أما آن لي بعد أربعة أشهر أن أتعقل وأطرد ماكس من حياتي كي أتمكن من العودة بها إلى سابق عهدها من الاستقرار!»

نظرت جوسي بسرعة وحرج في أرجاء المطعم ثم حدجت كيري بنظرة نكراء من عينيها الخضراوين وغمغمت: «أنت تزعقين، يا كيري، والناس ينظرون إلينا.»

«لا تهمني نظرات الناس» ورمقت صديقتها بغضب ثم وضعت الشوكة والسكين على الطبق وضغطت على صدغيها النابضين وأردفت متأوهة: «أحسبني بدأت أفقد عقلي.»

ردت جوسي بنبرة مؤنبة: «لقد أرهقت نفسك بالعمل وصرت بحاجة إلى إجازة طويلة ولطيفة.»

«يجب أن أشغل نفسي بتواصل وإلا فقدت عقلي حتماً. إذا أمضيت النهار بطوله في فراغ من العمل.»

«لكنك ستقتلين نفسك إن لم تكبحي نشاطك قليلاً.» حذرتها جوسي باهتمام، ثم سألتها بنظرة متفحصة: «لقد زرت كاتلين ستافورد مراراً في الآونة الأخيرة، فهل كانت تزودك بأخبار حول ماكس؟»

«إنها قلما تأتي على ذكره وأنا لا أرغب في السؤال.»

«لماذا؟ هل تخشين أن تحدس حبك لأخيها؟»

«لا أريد التكلم في هذا الشأن.» أجابت بتصلب، وغرزت شوكتها في السلطة إنما لم ترفع اللقمة إلى فمها.

صمتت جوسي بوجوم ثم أشارت إلى النادلة بأن ترفع الأطباق، وانتظرت حتى شرعتا تشربان القهوة فقالت: «لدي خبر لك قد يلهيك عن التفكير بماكس لبعض الوقت.»

سألتها بإعياء: «ما هو؟»

«والدك هنا، في جوهانزبرغ.»

خيل إليها أن غمغمات الأصوات في المطعم المزدحم قد تعاظمت، وأوشكت أن تختنق بجرعة القهوة: «والدي؟» رددت وهي حائرة في تصديق جوسي. «هل قلت أن والدي موجود هنا؟»

أومأت جوسي بهدوء: «لقد وصل هذا الصباح ويود الاجتماع بك، ولكنه قال شيئاً حول عدم تأكده من رأيك في هذا اللقاء، بعدما وصلت به القسوة إلى أن صفق الباب في وجهك قبل خمسة أعوام.» ثم عاينتها بفضول وأكملت: «هل تعرفين ماذا قصد بذلك؟»

«أجل، أعرف.» شدت شفتيها وأربدت عيناها إذ تذكرت ألمها وخيبتها آنذاك: «منذ خمس سنوات اتصلت به بواسطة إحدى الوكالات إلا انه نفض يديه مني.»

بدت جوسي منسحقة: «لم تخبريني أبداً بأنك حاولت الاتصال بأبيك!»

شعرت بالذنب وخفضت بصرها. لقد أخبرت ماكس، ولكنها لم تفكر إطلاقاً باطلاع جوسي على القضية. لماذا باحت له بتلك الخصوصيات ولم تبح بها لصديقتها المفضلة؟

«لقد جرحني موقفه كثيراً وحال ذلك دون إخبارك. وبعد ذلك لم أجد الحادث جديراً بالذكر.» قالت ذلك من باب الشرح ومحاولة تلطيف الجو. ثم خطرت لها خاطرة محيرة وسألت

www.liilas.com

صديقتها: «ما الذي حمل والدي على الاتصال بك، يا جوسي؟ كيف عرف بأننا صديقتان؟»

«قال إن شخصاً... رفض ذكر اسمه... أعطاه اسمي واقترح عليه أن يستعين بي كوسيط.»

فكرت كيري، لا بد أنه شخص من الوكالة، ولا بد أن والدها تذكر اسم الوكالة التي اتصلت به بواسطتها فزودته بأسماء عدة أشخاص، وهؤلاء اقترحوا عليه بأن يتصل بها عبر جوسي.

سألت جوسي قاطعة عليها أفكارها: «هل ستقابلينه؟»

«لا أدري، يا جوسي. أنا حقاً لا أدري.»

لماذا تفعل؟ سألت نفسها، لماذا توافق الآن على لقائه وقد رفض رؤيتها قبل خمس سنوات؟ لقد تذرع آنذاك بأن لقاءها سيعيد إليه ذكريات زواج يفضل أن ينساه. فلماذا يريد الآن نبش تلك الذكريات؟

أنبأتها جوسي بواقعية وهي ترشف قهوتها: «لقد نزل في فندق ساندطون صن، وإذا قررت أن تقابليه فسوف تجدينه عند السابعة مساء في صالة الكافانا. وسيكون واضعاً قرنفلة حمرا في عروة سترته.»

قرنفلة حمراء! ابتسمت بمرارة. أيعقل هذا! أبوها سيضطر لحمل قرنفلة حمراء كي تتمكن من التعرف عليه! يا للسخرية المضحكة والمحزنة في آن!

قالت وقد شحب وجهها قليلاً: «كانت أمي مولعة بالقرنفل الأحمر، فهل أبي ما يزال يذكر ذلك؟»

«لماذا لا تقابلينه وتسألينه؟»

رفعت بصرها وتبسمت بذبول: «قد أسأله.»

• • •

أمضت بقية العصر في صراع مع نفسها ولم تتمكن من أن تقرر ما يتوجب عليها فعله. ولكن فضولها حسم المعركة في النهاية. وفي تمام السابعة مساءً دخلت صالة الكافانا في فندق ساندطون صن.

أرسلت بصرها في أرجاء القاعة تبحث في وجوه الحاضرين ثم استقر على رجل يجلس في ركن إلى يسارها. كان يحملق بها. وانفرجت شفتاه عندما نقل بصره من شعرها الأشقر إلى ثوبها الأسود اللماع الحاضن جسدها الشديد النحول، وقفز قلبها بتوتر داخل صدرها.

هذا هو أبوها. ولكنه غريب. كيف يجب أن تتصرف؟ لو ظلت أمها على قيد الحياة كيف كانت أرادتها أن تتصرف؟

شدت قامتها ومشت صوبه وكان كعبا حذائيها العاليان يغرقان في السجادة الخضراء الوثيرة. «إنك تضع قرنفلة حمرا. إذن أنت إدوارد نلسون؟» ولما تباطأ في الإجابة شعرت بطعنة شك وأردفت: «أنت إدوارد نلسون، أليس كذلك؟»

«أجل، أنا هو. سامحيني.» كان قد نهض بسرعة خرقاء، إنما استمر يحدق إليها بعينيه الزرقاوين وبقيت احدى يديه تتشبث بظهر المقعد وكأنه بحاجة إلى سند: «إذا بدوت وقح التصرف فذلك بسبب شبهك الشديد لأمك.»

كانت قامته أطول بقليل من قامتها، وبنيته ممتلئة إنما عضلية أكثر مما هي مكتنزة. أما شعره فكان موشحاً بالشيب ولربما كان أحمر اللون في سن الشباب.

بدا رابط الجاش عندما أشار إليها بأن تجلس على المقعد المقابل له. فامتثلت لطلبه، وأخذت تدرسه بإمعان مثلما كان

يدرسها، فلاحظت التناسق المريح في قسماته النحيلة ذات الأخدودين العميقين ما بين أنفه وفمه، وقررت بأنه كان وسيما في شبابه، ثم حجرت قلبها تجاه هذه الخاطرة.

«لقد توفيت أمي منذ ثماني سنوات.» أعلنت ذلك بنبرة شبه اتهامية فاضطربت عيناه وكأنها لسعته.

«أعرف ذلك.»

نطق الكلمتين بهدوء متناهٍ، فودت لو تمسك به من ياقة سترته الأنيقة وتهزه تكراراً وإلى أن يشعر ببعض الألم الذي كابدته إثر موت أمها.

سألته بحدة: «من أخبرك؟»

تجاهل سؤالها قائلاً: «دعيني أطلب لك شراباً، ومن ثم نتحدث. ماذا تشربين؟»

لم ترد أن تشرب شيئاً، أرادت فقط أن تكلمه وتنتهي من الموضوع! لقد باتت حادة الطبع منذ رجوعها من ناميبيا ولكنها استطاعت الآن أن تلجم توترها: «سأتناول كوباً من العصير. شكراً.»

التزم كل منهما الصمت وهما ينتظران الشراب، وشرعا يلتفان حول بعضهما البعض ذهنياً مثل خصمين في حلبة وكل منهما يقيم نقاط الضعف والقوة لدى الآخر قبل بدء الهجوم. انكسرت حدة التوتر بينهما لما عاد النادل إلى طاولتهما ثم رشفا العصير بسرعة وكأنهما بحاجة إلى انتعاش فوري.

أخيراً قطع إدوارد حبل الصمت بقوله: «كنت قاسياً جداً عندما حاولت الاتصال بي قبل خمسة أعوام فأدرت لك ظهري. إني أعتذر عن تصرفي.»

تكلم بلكنة بسيطة اكتسبها بعد عيشه الطويل في استراليا، ولكن كيري لم تكن تفكر بلكنته حين سألته باقتضاب: «ما الذي جعلك تبدل رأيك؟»

«منذ مدة طويلة وأنا أشعر بوخز ضميري ولكن خبطته القوية أتت عندما قابلت شاباً صريحاً يدعى ماكسويل هاربر.»

«ماكس»، ذلك الاسم المألوف انفجر من شفتيها بما يقارب الصدمة وشحب محياها من خلال زينة وجهها المتقنة. وارتعدت يداها مما اضطرها إلى وضع الكوب على الطاولة كيلا تدلق العصير على فستانها: «أنت رأيت ماكس؟»

«أجل، قبل ثلاثة أسابيع اقتحم علي مكتبي، وقال لي بصراحة بأنه يعتبرني رجلاً حقيراً، وأيقظ ضميري إذ جعلني أدرك مقدار الأذى الذي ألحقته بك عندما رفضت الاعتراف بوجودك.» ابتسم إدوارد بأسى فتبين لكيري الشبه بين ابتسامة كل منهما. وخلص إلى القول: «لقد هزني تصرفه، إنما لا بدّ لي من الاعتراف بأنني أعجبت بأسلوبه.»

«ماكس فعل ذلك؟» استوضحت بذهول. وتساءلت عما حداه إلى مواجهة أبيها.

لقد أدهشها أنه تذكر ما كانت أخبرته إياه، وأدهشها أكثر أنه قد تجشم كل ذلك التعب ليحقق أمراً اعتقدت منذ وقت طويل بأنه مستحيل التحقيق.

قال والدها: «يسعدني علمي بأن لديك صديقاً على غرار ماكسويل هاربر الذي يحبك بالفعل، يا كيري.»

كان بوسعها أن تصحح مقولته، ولكنها قررت أن

www.liilas.com

تتجاوزها. رشفت من العصير المنعش وسألته: «لماذا صرفتني قبل خمسة أعوام؟»

«مبدئياً بسبب الصدمة، ثم بداعي الخوف.»

«الخوف؟» كررت باستغراب. فرمقها بابتسامة حزينة ملتوية: «كنت خائفاً من لقائك بعد كل تلك السنوات، خشيت أن يبعث لقاؤك الحياة في ذكريات قديمة ومؤلمة.»

«مؤلمة؟» عادت تردد بذهول. «هل إن ذكريات زواجك من أمي مؤلمة بالنسبة إليك؟»

«أجل، هي كذلك.» نظر إليها برهة ثم أثار غضبها مجدداً بتحويل الموضوع عند نقطة جوهرية من حديثهما: «هل تناولت عشاءك، يا كيري؟»

«كلا.» ردت بحدة.

«ولا أنا.» نهض واقفاً ثم أردف وهو يمد لها يده: «هلا تناولت العشاء معي؟»

«سيسرني ذلك، شكراً.» استغربت من نفسها هذا الجواب عندما نهضت بدورها ووضعت يدها في يده لأول مرة كي يواكبها من القاعة إلى أحد مطاعم الفندق.

استعرضت كيري قائمة الطعام المفضلة وطلبت حصة سمك صغيرة مع سلطة في حين اختار والدها طبق شرائح اللحم اليومي.

حافظ إدوارد نلسون طوال فترة العشاء على جريان الحديث، واستوضح كيري تفاصيل حول مهنتها، وتطرق إلى مواضيع دنيوية، وكان، على ما يبدو، عازماً على عدم الخوض في نقاش جدي حتى ينتهيا من تناول الطعام، فأذعنت كيري مكرهة لهذه الهزيمة المؤقتة.

خيم عليهما صمت متوتر عندما جلسا أخيراً يشربان القهوة، واختارت كيري هذه اللحظة لتفاجئه بالسؤال الذي طالما أقض مضجعها: «لماذا هجرتنا؟»

رفع بصره عن قهوته وسألها عابساً: «أهذا ما قالته لك أمك؟»

«هي لم تتطرق بتاتاً إلى الموضوع إلا عندما سألتها وكل ما قالته وقتئذ هو انك رحلت إلى استراليا.»

«أنا لم أهجركما، يا كيري.» هز رأسه الشائب وتبسم بأسى ثم صحح عبارته بقول: «أظن أنني تخليت عنكما بشكل ما، ولكن وراء القصة ما وراءها.»

«أود معرفة ما حصل.» وضعت الفنجان على الصحن وراقبته بانتباه عندما شرع يتكلم.

«إن الشركة التي كنت أعمل لديها آنذاك، عرضت علي عملاً في استراليا بموجب اتفاق مدته خمس سنوات. كان ذلك فرصة العمر بالنسبة إليّ فلم أستطع الرفض. كانت الاتفاقية تجيز لي اصطحاب عائلتي معي، ولكن امك كانت قد تلقت لتوها عرضاً لأن تصبح شريكة في مؤسسة المحاماة التي تعمل فيها. فشعرت بان رحيلها في ذلك الظرف الراهن سوف يلحق الضرر بمهنتها.»

«وهكذا رحلت منفرداً.» أضافت كيري عنه حين صمت مفكراً.

«أجل. سافرت بمفردي. بعد شهر كتبت لأمك ورجوتها أن تلحق بي إلا أنها رفضت. كتبت لها ثانية وقلت بأنها إذا كانت تحبني فمن الطبيعي أن تأتي إليّ، فردت على رسالتي بقولها بأني لو كنت أحبها لما كنت تركتها أساساً. كان هناك عنصر

www.lilas.com

من العناد في موقف كل منا، على ما أظن، ولكن خلال العام الأول في استراليا، ضمّنا رسائلنا الكثير من العبارات الجارحة المتبادلة، وفي الأخير اتفقنا على ضرورة ابتعادنا خمسة أعوام عن بعضنا البعض، وبعدها نقرر بصورة نهائية إذا كان زواجنا يستأهل الإنقاذ.»

«من منكما قرر إنهاء الزواج؟»

«أنا فعلت.» قال معترفاً، وتعمق الوجوم المحيط بفمه.

«كانت أمك قد قالت إنه لدى انتهاء مدة عملي في اوستراليا، أستطيع إذا أردت أن أعود إلى الوطن كي نحاول تسوية مشكلاتنا، إلا أنني على امتداد تلك السنوات الخمس الطويلة صرت مفعماً بالخيبة والمرارة، ولم أعد أجد هناك ما يحتاج إلى تسوية، وفضلاً عن ذلك كانت واتتني فرصة لأستقل في عمل خاص، وفي تلك الأثناء أيضاً التقيت المرأة التي تزوجتها في ما بعد. وهكذا قررت أن أقطع ارتباطاتي الزوجية فكتبت لأمك آنذاك طالباً منها الطلاق.»

أضافت كيري بمرارة: «وهكذا سارعت إلى نسياني.»

أجابها بمرارة مماثلة: «كلا، لم أنسك أبداً. لقد أعطيت أمك حق حضانتك، ولأنك لم تريني لسنوات طويلة. قررنا. أنا وأمك، أن نبعدك دورياً عن طريق والد لم تعرفيه معرفة فعلية، وذلك حفاظاً على سعادتك.»

«فهمت.» لقد تفهمت الطريقة التي فكر بها والدها طوال تلك السنين ولكن الألم لم يبارحها.

مضى أبوها يقول: «زوجتي. مارج، امرأة طيبة. لقد أنجبت لي ولدين رائعين، وأسعدتني كثيراً بيد أنها لم تقدر أن تملأ الفراغ الذي خلفته أمك في حياتي.»

أمها خلفت فراغاً في حياته؟ ما هذا الكلام الذي يقوله؟

أردف شارحاً: «كيري، لقد عرفتْ مارج منذ البداية بأنني لن أتوقف أبداً عن حبي لأمك، وتجنبا مني لعدم إيلامها، وجدت من الأنسب ألا التقيك.»

تأثرت كيري بالغ التأثر، وقالت بهدوء: «لا ريب أن زوجتك تحبك كثيراً.»

«أنا لا أستحقها.» قال بتجهم. وحرك كتفيه وكأن سترته ضاقت فجأة على جسمه.

قالت كيري وهي تعبث بمسكة حقيبتها اليدوية: «أظن أن أمي أيضاً لم تتوقف عن حبك يوماً.»

«لا بد وانك مخطئة، يا كيري.» ابتسم استخفافاً بنظريتها.

«لا أظن بأني مخطئة.» ثم فتحت حقيبتها، ورأت وجهه وقد راح يشحب في نور الشموع حين رأى القلادة التي رفعتها بين أصابعها. كانت في شكل قلب ذهبي وقد حفرت على ظهرها عبارة «جانيت، أنا أحبك. إد.» والتاريخ كان سنتين قبل مولد كيري. ناولته القلادة عبر الطاولة وغصت وهي تشرح له: «كانت أمي تتقلدها باستمرار ولا تذهب إلى أي مكان من دونها وكانت تتمسك بها بقوة عندما توفيت. هل تظن بأنها كانت ستعيرها كل تلك الأهمية لو لم تكن تحبك؟»

قرأ العبارة المحفورة في القلادة وملأ الألم عينيه وتساءل متأوهاً: «ولكن لماذا؟ لماذا جعلتني أعتقد بأنها توقفت عن حبي؟»

«لست أدري.»

إذا أحببت شيئاً. أطلق سراحه. تذكرت كيري مجدداً كلمات أمها. هل أطلقت سراح زوجها على أمل أن يعود إليها؟

www.liilas.com

وقالت كيري لوالدها: «لعلها خافت أن تصارحك بحبها لاعتقادها بأنك ما عدت تحبها ولم تشأ بالتالي أن تحرجك. ربما أملت، برغم كل شيء بأنك ستعود إليها في نهاية المطاف وتعطي زواجكما فرصة ثانية.»

قال موافقاً: «هذا التحليل يبدو مطابقاً لطريقة تفكيرها.»

«هل تحب أن تحتفظ بالقلادة؟»

هز رأسه وأعادها إليها قائلاً: «احتفظي بها أنت، يا كيري، كي تذكرك بأن لا تدعي الكبرياء العنيدة تقف بينك وبين من تحبين.»

كانت نصيحة سديدة إنما كيف لها أن تطبقها والرجل الذي تحب لن يبادلها حبها أبداً؟

على الرغم من هواجسهما السابقة تحدثا حول أمور كثيرة. استغرقت وقتاً طويلاً فعادت كيري إلى بيتها في وقت متأخر من مساء الخميس ذاك. ازدحمت الأفكار في رأسها فعجزت عن النوم واستلقت مسهدة معظم الليل، لكنها قصدت المطار في الصباح التالي لتودع والدها وكما وعدته بذلك.

لما أزف موعد سفره قالت له بتأثر: «أشكرك على مجيئك وتجشمك كل هذه المشقة لتتكلم معي.»

«يسرني أنني أتيت.» ابتسم إدوارد لابنته وأردف وهو يأخذ يديها الإثنتين في يده: «أظن أنه عندما نلتقي ثانية ستكونين زوجة لذلك الشاب الذي اقتحم مكتبي في سيدني وقرأ عليّ حقوقي المدنية.»

قالت وقد تصلبت: «أخشى أنك كونت انطباعاً مخطئاً، فأنا وماكس لا... لسنا...»

«إن كنتِ ستقولين بأنك غير مغرمة به فاعلمي بأني رأيت

نظرة الحب على وجهك عندما ذكرت اسمه ليلة أمس.»

سترت ألمها خلف ابتسامة مغتصبة: «إنه حب من طرف واحد، فماكس لا يحبني.»

«لا يحبك؟» بدا عليه الاندهاش ولكن الاعلان عن قيام الطائرة وضع حداً للحديث. وإذا بإدوارد يجذب ابنته إليه في عناق غير متوقع، فبادلته إياه بشعور غريب من الانتماء وقال أخيراً: «اعتني بنفسك، يا طفلتي.»

طفلتي! أثارت الكلمة فيها ذكرى رقيقة ما كانت لتتذكرها من تلقاء نفسها. كان يخاطبها بها دائماً، وما من مرة ناداها باسم كيري. تمسكي جيداً، يا طفلتي، فبابا سيحملك على ظهره إلى سريرك!

تذكرت ذلك المشهد بجلاء لامع. اغرورقت عيناها بالدموع ولاحقته بنظراتها يسير مبتعداً عنها، ثم اختفى.

تلكأت في مبنى المطار حتى رأت طائرة سيدني... استراليا تكرج على المدرج استعداداً للإقلاع. كان الناس يحتشدون في قاعة المراقبة وهم يضجون ويلوحون للأصدقاء والأهل المسافرين بالطائرة على الرغم من أنهم لا يستطيعون رؤيتهم، إلا أن كيري وقفت كتمثال تقاوم دموعها، وتتمنى استرجاع زمن قد ولّى إلى الأبد.

«هذا تصرف نموذجي لماكس.» علقت كاثلين ضاحكة عندما أخبرتها كيري عن اتصاله بوالدها في استراليا. وأردفت: «كان يتميز دائماً بحس فائق للعدالة.»

حس بالعدالة. أجل كان هذا كل ما في الأمر. إحساس مؤثر بالانصاف.

www.liilas.com

مدت كيري ساقيها صوب أشعة الشمس الشتوية المتسربة بإغراء من شباك غرفة المكتبة، ووضعت كاحلاً فوق كاحل وكانت تلبس جوربين قطنيين وتنتعل جزمة. رشفت الشاي بتؤدة، وللمرة الثالثة في عصر ذلك الأحد اضطرت لانتزاع بصرها عن صورة ماكس لتحاول تركيز اهتمامها كاملاً على كاثلين ستافورد. وقالت وهي تسيطر بصعوبة على تعابير وجهها: «كان لطفاً من ماكس أن يجشم نفسه عناء المشقة ليساعدني.»

«هذا الصباح تلقيت مخابرة هاتفية من أحد معارف ماكس.»

شيء ما في صوت كاثلين جعلها تهبّ لقلق غريب. ماذا يعني ذلك؟ هل كان مجرد تخيل منها أم أن شيئاً حصل بالفعل ويجدر بها أن تعلمه؟

وسألت عرضاً متصنعاً: «كيف حال ماكس؟»

«إنه في المستشفى.»

اعتصرت قلبها أصابع جليدية وقفز ذهنها بجنون من احتمال مرعب إلى آخر حين استقامت جالسة في مقعدها. لقد شحب محياها بوضوح وأخذت يداها في الارتعاد، مما اضطرها إلى وضع فنجانها على الطاولة خشية أن تدلق بقايا الشاي على حضنها أو على السجادة العجمية، وسيكون ذلك أسوأ.

استوضحت بحدة وخوف: «ما الخطب؟ ماذا حدث؟»

«وقع عن ظهر فرس، قبل يومين، فدق عنقه.»

اعتراها ارتياح عارم وتهدلت بوهن على مقعدها. فخلال الأسابيع التي تلت زيارة والدها فعلت كل ما أمكنها فعله كي

تتوصل إلى قناعة بما كتب عليها. أدركت أنها لن تستطيع الحصول على ماكس، ولكن ذلك لم يمنعها من التفكير فيه، ولا خفف حنينها الذي كان يستلقي على صدرها مثل حجر ثقيل في ليالي السهاد الطويلة القاتمة.

ألن يكون لذلك نهاية؟

رفعت بصرها الآن ولاحظت برعب أن كاثلين ما برحت منذ وقت تتأملها بتساؤل من فوق حافة فنجانها.

«هل تحبين أخي، يا كيري؟»

هزها السؤال ضمنياً بقدر ما هزها تخيلها المرعب بأن ماكس قد يكون أصيب بمكروه شديد.

«هل أنت مغرمة به؟» كررت كاثلين بلطف لتحثها على الجواب.

«لا، بالطبع لا! من السخف أن تظني ذلك مجرد ظن.»

ردت كاثلين بهدوء وهي تضع فنجانها على الصينية: «لا أظن أن الأمر سخيف إلى هذا الحد. أظن أنك مغرمة بماكس بل إنني مقتنعة بذلك.»

هزت كيري رأسها بتوتر: «لا أدري من أين أتيت بهذه الفكرة المجنونة. ولكنك مخطئة و...»

قاطعتها كاثلين بحزم: «إذا كنت لا تحبينه، فاشرحي لي إذاً، لماذا تظل صورته لا تبرح عينيك كلما جئت إلى هنا؟ وأخبريني أيضاً لماذا شحبت شحوب الأموات عندما ذكرت بأنه في المستشفى؟»

حاولت كيري الكلام ولكن الكلمات علقت في حلقها وآلمتها. ثم نهضت واقفة ومشت إلى النافذة. كانت حديقة كاثلين الجميلة قد تبدلت مع تبدل الفصول... من فتنة الصيف

www.fiilas.com

إلى ذهب الخريف وأخيراً إلى عري الشتاء الكئيب والرمادي.

لقد مرّ أكثر من أربعة شهور على لقائها الأخير لماكس، ولم تستطع خلالها أن تخلص كيانها من حبه، ولكنها بدأت أيضاً تجد صعوبة في تبين مشاعرها.

سمعت نفسها تسأل كاثلين: «هل كنت جلية إلى هذا الحد؟»

«ليس في البداية، يا عزيزتي. أقر بأن الشكوك لم تبارحني ولكني لم أتأكد إلا الآن.»

أستدارت كيري صوبها وقالت بصوت عذب كعينيها: «أرجوك... لا تخبريه. لا أريده أن يعرف.»

تأملتها كاثلين برهة طويلة ثم قالت بوقار: «إذا كانت هذه رغبتك فأعدك وعداً قاطعاً بألا أخبره.»

«في الحقيقة، ما عدت أفهم مشاعري» اعترفت كيري وهي تعود إلى مقعدها وتجلس عليه بتثاقل. «لقد مر وقت طويل، ولكثرة ما عانيت من غضب وتمرد في الآونة الأخيرة بدأت أتساءل عما إذا كان هذا الحب هو مجرد توق طفولي إلى شيء أعرف بأني لن أستطيع الحصول عليه.»

قالت كاثلين وهي تسكب شاياً ساخناً لكلتاهما: «إن ماكس لم يصارحني بشيء ولذلك لا أستطيع أن أتكلم بالنيابة عنه. أعرف أنه يعتبر من عدم الانصاف أن يتزوج ويتوقع من زوجته أن تتحمل نمط حياته الترحالي، ولكني أعتقد بأنه يحبك بشكل ما، ولولا ذلك لما كان طلب مني أن أظل على اتصال بك.» وهنا وضعت إبريق الشاي على الصينية واتسعت عيناها بذعر: «أوه! ما كان يجب أن أذكر هذا!»

قلصت كيري يديها على ذراعي المقعد وقد شعرت بنوبة

غضب أخرى تتفجر في داخلها، نوبة من سلسلة باتت مألوفة لديها، وهتفت: «ماكس طلب منك أن ترصدي تحركاتي وتبعثي إليه بتقارير حولها؟ أهذا ما يجري؟ وهل هو الدافع الوحيد لصداقتنا؟»

احتجت كاثلين بتلهف: «لا، لا! ليس الأمر كذلك على الاطلاق! فلولا استمتاعي برفقتك لاستطعت إيجاد سبل أخرى عديدة للاتصال بك من دون أن أضطر للاجتماع بك أو لدعوتك إلى زيارة بيتي. وبالنسبة إلى رصد تحركاتك وإرسال تقارير إلى ماكس... فهذا لعمري، اتهام رهيب!»

«لكنكما تحدثتما بأمري في اتصالاته الهاتفية.»

«كان يسألني إن كنت رأيتك أو سمعت منك، وكنت أقول له بأنني دعوتك إلى شرب الشاي أو أننا التقينا في المدينة لتناول الغداء. لم تعد أسئلته وأجوبتي ذلك النطاق.» ارتجفت يدها قليلاً وهي تناول كيري فنجان الشاي. «لقد عرف ماكس العديد من النساء الأخريات، يا كيري، ولكنه لم يحاول مرة أن يبقى على اتصال بهن. ولذلك أنا متأكدة من حبه لك.»

«لا تدعيني أتعلق ثانية بحبل الأمل، يا كاثلين. ماكس لا يحب سوى حريته، وأنا لا أعتزم نسيان هذه الحقيقة.»

عندما غادرت كيري المنزل وسارت إلى حيث أوقفت سيارتها، كانت ظلال الأصيل قد استطالت على المرج وكان في الهواء برودة قارسة جعلتها ترتجف تحت كنزتها الصوفية الزرقاء.

لما فتحت باب السيارة قالت لها كاثلين: «لا تدعي حبك لأخي الشارد يعكر صداقتنا.» ثم مالت إلى الأمام وطبعت قبلة غير متوقعة على خد كيري البارد، وأردفت: «بغض النظر عما

قد تعتقدين، فقد بت مولعة بك، يا كيري، وليتني أستطيع فعل شيء لأجعله يدرك بأنك ستكونين زوجة كاملة.»

في أواخر تموز، وفي ليلة قارسة البرد، جففت كيري جسمها بعد الاستحمام وارتدت ثوب نوم شتوياً طويلاً. كانت انجزت المهمات الموكلة إليها وكانت تفكر جدياً بالعمل بنصيحة جوسي فهي بحاجة إلى إجازة طويلة في مناخ دافىء وهادىء حيث تتمكن من تنظيم الفوضى التي آلت إليها حياتها.

زحفت باعياء إلى سريرها وانزلقت تحت الغطاء متنهدة. كانت مجهدة حتى العظم من محاولتها المستمرة لايجاد النسيان عن طريق الاغراق في العمل الدؤوب الطويل، ومجهدة من حياة تعيشها دونما هدف معين، وكأنها حية ميتة.

رن جرس الهاتف فجأة مخترقاً أفكارها الكئيبة بزعيقه الحاد، فاستوت جالسة ونظرت إلى الساعة الصغيرة المحاذية لسريرها. الحادية عشرة والربع! لا أحد يخابرها في ساعة متأخرة كهذه!

قفزت من الفراش بقلب خافق وأعصاب مرتجة وركضت تخرج من غرفتها حافية القدمين. أضاءت نور الردهة وأوشكت أن تقلب اصيص الأقحوان لشدة استعجالها في رفع السماعة.

«كيري تلسون تتكلم.» قالت بحذر.

«أهلاً كيري.»

ذلك الصوت!

انثنت ركبتاها تحتها، ثم انزلقت على الجدار البارد وجلست على السجادة مثل كومة تقوقعت.

الفصل العاشر

«آلو؟ كيري؟ تباً لهذه الهواتف الرديئة!» كان صوته غاضباً نزقاً، ومترافقاً مع خبط متقطع وكأنه لكم مراراً إطار الهاتف المعدني. «هل تسمعينني، يا كيري؟ آلو؟ هل أنت على الخط؟»

سمعت كل ذلك من مسافة بعيدة فيما حاولت جاهدة أن تشق طريقها صعوداً عبر غطاء الظلام الذي هدد باحتوائها: «أنا هنا.» تحركت شفتاها من دون صوت، فتنحنحت وحاولت ثانية: «أنا هنا، يا ماكس.»

«ماذا؟ أنا لا أستطيع سماعك.»

«قلت لك بأني هنا.» رددت بصوت أعلى.

«الحمد لله! حسبت أن هاتفك معطل بعدما فشلت ثلاث مرات في الاتصال بك.»

سألته وهي تضغط على قلبها الخافق لتسكته: «من أين تخابر؟»

«لقد حطت طائرتي منذ ربع ساعة. مازلت هنا، في المطار.

«لم يخطر لي بأنك ستعود بهذه السرعة، فقد قلت...»

قطع ثرثرتها التافهة بقوله: «يجب أن أراك الليلة، يا كيري. يجب أن أكلمك في موضوع هام.»

مهمة أخرى؟ بالتأكيد، فعن أي شيء آخر سيتكلم! شعرت بأنها على أهبة البكاء ولكن الدموع التي لسعت جفنيها

www.liilas.com

كانت نابعة من عاصفة الغضب التي بدأت تجتاح كيانها.

«إن كنت تفكر بأن تعرض عليّ مهمة أخرى فالجواب هو لا، وبالنسبة إلى رؤيتي في هذه الساعة المتأخرة فالجواب هو أيضاً لا!»

خبطت السماعة ثم غصت بالبكاء وهي تلصق جبينها بركبتيها المرفوعتين.

جلست بضع لحظات تؤرجح جسمها المتكور على نفسه. ثم جثمت على الأرض ومدت يدها إلى تحت المنضدة لتقطع التيار عن الهاتف. فإذا به يرن ثانية فسارعت إلى قطع التيار عنه فخرس.

عادت إلى سريرها وجسمها يهتز مرتعداً. ورفعت الغطاء حتى أذنيها ومع ذلك لم تتوقف عن الارتجاف.

كيف يجرؤ ماكس على أن يخرج من حياتها، وأن يعتقد بعد مرور خمسة أشهر، بأنه يستطيع العودة إليها بهدوء؟ كلا! لن تسمح له بإيذائها، لن تسمح للعذاب بأن يبدأ من جديد!

لم تستطع للنوم سبيلاً. كانت أغصان الشجرة العارية، خارج نافذتها تموج مع الهواء وتطرح ظلاً متحركاً على السقف. فراحت تحملق في تلك الأصابع المتلمسة طريقها في ضوء القمر. أدركت بشكل ما أن هذه الليلة لن تنتهي بمخابرة ماكس. وهكذا انتظرت برهبة.

كانت مستلقية بجمود تحت الغطاء ومرهفة أذنيها لسماع أي صوت غريب داخل البيت وخارجه.

بلغ توترها ذروته عندما سمعت سيارة تتوقف أمام بوابتها قبل دقائق من انتصاف الليل.

بقي المحرك دائراً وهديره القوي يعكر السكون مثلما

عكره بعد لحظات صوت باب سيارة يفتح ثم يصفق، وبعد ذلك انطلقت السيارة مجدداً.

هل كانت تلك خطوات ماكس المألوفة تطأ الباحة المغطاة بالحصى وتقترب من بابها أم انها تصغي إلى خفقات قلبها المدوية في أذنيها؟

تكورت تحت الغطاء وسدت أذنيها بيديها. رن جرس الباب وكان رنينه مكتوماً إلى حد ما ومع ذلك جعلها ترتج وكأن عدة شحنات كهربائية سرت فجأة في بدنها.

غاصت إلى أسفل السرير لدى سماعها رنين الجرس المتكرر. وبعد دقيقتين استُبدِل الجرس بطرقات عنيدة على الباب. كان صوتها العالي كافياً لإيقاظ جيرانها.

فكرت بيأس، كيف سأتصرف، يا إلهي؟

«لا تدعي الكبرياء العنيدة تقف بينك وبين من تحبين.» هكذا أوصاها والدها، ولكن ما تفعله الآن ليس له أي علاقة بالعناد أو الكبرياء، فهي تفعل ذلك لتحافظ على بقائها!

أنت جبانة! همس ضميرها مؤنباً فيما استمر الطرق على الباب. جبانة؟

أزاحت الغطاء بعنف وأضاءت المصباح المجاور للسرير ثم انتعلت خفها. «أنا لست جبانة!» تمتمت بشجاعة وهي ترتدي روبها الذي صار واسعاً بسبب نحولها المفرط.

توقف الطرق حالما أضاءت نور الردهة. كانت غاضبة الآن. فالغضب سلاحها الوحيد لمقاومة ذلك الخفقان المخيف في صدرها، والكاظم الوحيد والفعال لتلك العواطف المحرّمة.

«من هناك؟» سألت بحدة.

www.liilas.com

«تعرفين جيداً من هناك!» كان صوته المألوف جافاً وثائراً إنما بانضباط. «أنا ماكس، افتحي الباب!»

صاحت بنبرة مذعورة: «امض من هنا! أخبرتك بأنني لا أرغب في رؤيتك!»

صرخ محذراً: «إذا لم تفتحي هذا الباب سأحدث ضجة عالية تسمعها الجيرة بأكملها.»

أدركت من نبرته أنه جاد في تهديده، فمالت إلى الأمام بيأس وألصقت جبينها الساخن بخشب الباب البارد. كانت ترتعد إنما ليس من البرد. فقد شعرت بلزوجة كفيها حين وضعتهما على الباب بحركة دفاعية لا واعية.

«كيري! لقد أنذرتك!»

لم تسمع كعبي حذائه يكشط بلاط السيراميك في الغرفة. ماذا سيفعل؟ هل سيرفس الباب ويفتحه عنوة؟

أجابته هاتفة: «حسناً! انتظر! إنني أفتح الباب!»

ما أن سحبت قفل الأمان حتى دفع الباب من الخارج وفتح. دخل ماكس فجأة حاملاً حقيبة ثيابه، ومقزماً ردهتها الصغيرة بقامته الطويلة. كان مرتدياً معطفاً رمادياً مرفوع الياقة، وكان هناك غضب قاتم... وشيء آخر لم تستطع تحديده... في عينيه اللتين جرفتاها من الرأس حتى القدم.

شعرت بنوبات حر وبرد، وتراجعت تحتمي بالجدار وهي تمتع نظرها الجائع بقسماته الوسيمة الخشنة التي سكنت أيامها ولياليها منذ أشهر عدة. خافت على نفسها فجأة وهي تحملق جامدة في الرجل العريض المنكبين المطل عليها من علٍ. ارتجفت من هواء الليل الجليدي الذي لسع أنفها وتسلل

إلى بدنها من تحت قميصها الطويل، فزجرته قائلة: «أغلق الباب، فأنت تدخل تياراً بارداً.»

وضع حقيبته على الأرض قبل أن يمتثل لطلبها. وارتجفت أعصابها الحساسة من صرير قفل الباب.

قال بنبرة اتهامية غاضبة: «لقد قطعت المخابرة!»

ردت بحنق مماثل: «وماذا توقعت مني أن أفعل وقد خابرتني فجأة وفي ساعة متأخرة؟ وإذا كان الغرض من المخابرة احتياجك إلى مصور فمن الخير أن تبحث في مكان آخر لأنني غير متوفرة.»

«لم أقل إنني بحاجة لمصور.»

«قلته ضمناً.»

صحح لها بنظرة ساخرة: «كلا، أنت افترضت ذلك.»

«حسناً، لقد افترضت ذلك. فأي سبب آخر كان سيحملك على مخابرتي؟»

«سنتحدث في ذلك لاحقاً.» نزع معطفه ووضعه على حقيبته. كانت ملابسه البنية تناسب مقاسه إنما بدا جسمه أشد نحولاً. «دعيني فقط أنظر إليك، يا كيري.» كان شعرها الفضي يتهاوى مبعثراً على كتفيها، وأحرجها أن تقف أمامه بقميص النوم ولكنه بدا أكثر اهتمام بالظلال السوداء تحت عينيها، وبتلك الصرامة غير المعتادة التي تحيط فمها الناعم.

جال بنظره على كامل جسمها، ففاضت الذكريات في ذهنها، وانفلت توقها الداخلي من عقاله، حابساً عليها أنفاسها.

تراخت أطرافها فأدركت، بأنها إن لم تتصرف بسرعة ستجعل من نفسها أضحوكة أمامه.

www.liilas.com

«الآن وقد رأيتني، أقترح أن تقول ما لديك وتنصرف.» هل كان ذلك الصوت الفظ والبارد... صوتها؟

أجفل ماكس وكأنها صفعته ثم تأملها لحظة وقال: «أنت غاضبة»

«أجل أنا غاضبة»

«لماذا؟»

أربكها السؤال كلياً لأن الجواب سيضطرها إلى تعرية روحها أمامه وكان ذلك آخر ما ترغب فيه لحظتئذ.

زال غضبها تدريجياً إنما صارت الآن هشة بعد أن فقدت حمايته. قالت وكتفاها تتهدلان بانهزام: «الوقت متأخر، يا ماكس، وأنا متعبة، فهل لنا أن نختصر الحديث قدر الإمكان؟»

«هل تعدين لي فنجاناً من القهوة؟»

همت بأن ترفض ولكن الرحمة أسكتتها. فقد استوعبت الآن مقدار ارهاقه، إذ كانت عيناه غارقتين في وجهه. وتجاويف محياه السابقة صارت الآن أخاديد عميقة. بدا مجهداً وكأنه لم يأكل ولم ينم منذ أيام. فكيف تبخل عليه بفنجان قهوة؟

شعرت بالخجل من نفسها وقالت: «تفضل إلى المطبخ.»

مشت أمامه تدله إلى الطريق، وقال بعدما أضاءت النور: «اشعر بحاجة إلى الاستحمام بعد عناء السفر فهل لي أن أستحم وأبدل ثيابي ريثما تعدين القهوة؟»

يا لجرأته! إنه يملك شقة فخمة في المدينة، وبدل أن يذهب إليها، اقتحم بيتها المتواضع في منتصف الليل. وطلب أن يشرب قهوتها ويستعمل حمامها. لقد تمادى وأمعن في التمادي!

أجابته بسخرية لاذعة وهي تجري الماء في الإبريق: «تصرف وكأنك في بيتك. الحمام يتفرع من مخدعي وبابه إلى اليسار في آخر الرواق. ستجد مناشف نظيفة في خزانة الحمام.»

أخذ حقيبته من الردهة وعبر الرواق صوب مخدعها. وما لبثت أن سمعت جريان الماء وكان الإبريق يغلي، فأخرت صنع القهوة الفورية حتى تناهى إليها صوت جريان الماء في مصرف المغطس.

نظرت إلى ساعة الفرن فإذا بها الثانية عشرة والنصف. يا إلهي! إنها مرهقة ومع ذلك تشعر بأنها... مفعمة بالحياة!

كفى، يا كيري! قالت لنفسها لقد جاء لغرض آخر لا علاقة له بما جعلك تشعرين بعودة الحياة إليك، وبأنك مرغوبة أو محبوبة. لا تعلقي آمالاً كبيرة، يا فتاتي، لأن ماكسويل هاربر لن يعدل عن رأيه السابق في الزواج.

جهزت القهوة وانتظرت. أثار فضولها سكون شامل فغادرت المطبخ وعبرت الرواق إلى مخدعها.

«ماكس؟» نادته بلطف، وحين لم تسمع جواباً دخلت الحجرة.

كان منطرحاً على سريرها العريض وقد ارتدى بنطالاً أزرق وكنزة رمادية ولم ينتعل حذاء. وعرفت من انطباق عينيه وانتظام أنفاسه بأنه كان مستغرقاً في النوم.

هالتها جرأته، وأرادت أن تضحك، وبدلاً من ذلك غصت بريقها ودمعت عيناها.

«أواه، يا ماكس!» همست باسمه باهتزاز، وسحبت الحرام من تحت قدميه ودثرته به ثم أطفأت مصباح السرير.

أخرجت حرامين ووسادتين من خزانة الرواق، وجعلت من أريكة الصالة سريراً لها ولكن النوم جافاها وأخذت تصغي إلى الأصوات المألوفة داخل البيت وخارجه. طاب لها اجتماعهما تحت سقف واحد فغمرها هدوء نفسي لم تعهده منذ أشهر.

لكن نفسها جادلتها: لا تحلمي، يا كيري، فما هي إلا ليلة واحدة، وغداً يرحل من جديد وتعودين إلى نقطة البداية.

فكرة مقلقة ولكنها أزاحتها جانباً. يكفي علمها بأن ماكس معها في البيت نفسه ولو لليلة واحدة. ومع هذه الفكرة استسلمت لنوم مريح.

صباح الأحد استيقظت في السادسة قبل طلوع الفجر. تشوشت برهة، عندما وجدت نفسها على الأريكة ثم تذكرت. ماكس، ماكس نائم في سريرها!

نهضت بسرعة وبصمت طوت الحرامين وأرجعتهما مع الوسادتين إلى الخزانة ثم ولجت المطبخ. أضاءت النور وحدقت برهة في القهوة التي بقيت على الطاولة من دون أن تمس. قرفت من لونها الداكن وأفرغت محتويات الفنجانين في المجلى ثم شغلت الإبريق الكهربائي لتعد قهوة طازجة.

كان ماكس نائماً عندما دخلت مخدعها وانفطر قلبها لرؤيته نائماً على الوضع نفسه. خطت فوق حقيبته المفتوحة والموضوعة على الأرض كي تصل إلى خزانتها وأخرجت منها بدلة رياضة نيلية وحذاء قماشياً.

اغتسلت وبدلت ثيابها في الحمام وكان ماكس قد بدأ يصحو عندما عادت إلى المطبخ لتجهز الافطار.

في السابعة والنصف دخل ماكس إلى المطبخ حافي القدمين وما يزال لابساً الثياب التي نام فيها وقد تبعثر شعره

على جبهته العريضة. ابتسم بخجل عندما جلس إلى طاولة الافطار الجاهزة.

قال معتذراً: «أخشى أني صادرت سريرك ليلة أمس.»

«لاحظت ذلك.» ردت بجفاف ووعت بعمق أنه يتابع حركاتها بعينيه الداكنتين.

مضى يقول: «شعرت بارهاق بعد الاستحمام ففكرت أن أستلقي لبضع لحظات ولكنني استسلمت للنوم فوراً. أنا آسف.»

تجاهلت اعتذاره وسألته: «قهوة؟»

«شكراً.»

أعدت قهوة فورية ووضعت الفنجان أمامه. أشاحت بنظرها عنه بعد لحظة من التقاء عينيهما وانتفضت أعصابها تجاوباً مع رقة نظرته.

لما استدارت إلى فرن الغاز حذرت نفسها: كيري، لا تدعيه يلين قلبك ثم يرحل عنك من جديد!

قال بعد الصمت الطويل المحرج: «رائحة شهية... ماذا تطهين؟»

«عجة بالجبنة.» وضعت على الطاولة خبزاً محمصاً، ثم لبست قفازين لترفع الطبقين الفارغين اللذين سخنتهما في الفرن وحملتهما إلى الطاولة. وحين وضعت عليهما العجة لاحظت أنه كان يثني كتفه اليمنى باحتراس فسألته بقلق بالغ: «أما تزال كتفك تسبب لك ألماً؟»

«لقد التأمت الكسور جيداً. ولكنها تنزع إلى التصلب خلال الليل.» وأردف مبتسماً لما جلست إلى الطاولة: «أظن أن كاثلين أخبرتك.»

www.liilas.com

«أجل.» قنعت وجهها بجمود مهذب وهي تقرّب منه الخبز والزبدة. «هل تعلم كاثلين بأنك رجعت؟»

«كلا.»

استغربت الأمر وتساءلت، لماذا لم يعلمها بموعد رجوعه وكان طوال غيابه على اتصال دائم بها؟

كثرت الأسئلة في ذهنها فما عادت قادرة على التعامل معها. وضعت الشوكة والسكين على طبقها وسألت ماكس مواجهة نظرته: «ما هو الأمر البالغ الأهمية الذي قلت عنه ليلة أمس بأنه لا يحتمل التأجيل حتى الصباح؟»

«فلنأكل الآن ونتكلم لاحقاً.» تابع تناول الطعام بشهية وتمهل.

«إن كنت تحاول أن تورطني في مهمة أخرى فخير لك أن تنسى الأمر لأنني...»

«في الحقيقة، لدي مهمة أخرى لك.»

احتدت غضباً من مقاطعته الهادئة وهتفت بحنق: «إنني أرفض، يا ماكس، وهذه المرة لن تتمكن من ابتزازي بأية طريقة.»

لم يأبه لتعليقها فقال وهو يضع لقمة عجة في فمه: «ما أطيبها.»

علّقت محتدة: «أظن أنك واحد من أكثر الرجال قدرة على إغاظة الآخرين»

«أظن انك آية في الجمال حينما تغضبين، مما يجعلك حتماً أكثر اغراء وجاذبية.»

«عليك اللعنة، يا ماكس» انفجرت هاتفة بصوت ثائر وعيناها تقدحان شرراً أزرق: «تباً لك! فقد عدت إلى حياتي

كالعاصفة وأنا ما كنت أستعيد شيئاً بسيطاً من حياتي الهادئة السابقة!»

سال وقد تجهم وجهه النحيل: «وهل يوجد ما يمسى حياة هادئة طبيعية؟ يعلم الله أني عرفتها في الماضي إنما يبدو أني ما عدت قادراً على إيجادها.»

تساءلت، ماذا يعني؟ كيف عليها أن تفسر عبارته؟ همد غضبها قليلاً فيما حاول ذهنها المشوش أن يتمسك بشيء يُمعن في الابتعاد عن متناوله.

التقطت الشوكة والسكين بيدين مرتعشتين وقالت: «من الخير أن نأكل فالجوع يشوش تفكيري أحياناً.»

استرخت قسماته إلى حد ما، وعلّق: «قد يكون لزاماً على أن أستغل هذا التشوش لأعرض قضيتي.»

«إياك وأن تحاول.» حذرته وعيناها تشتعلان بمثل نار زرقاء.

رفع يديه كأنما يدافع عن نفسه وقال ضاحكاً: «استرخي يا كيري، كانت مجرد فكرة.»

ران عليهما الصمت، وكان بين حين وآخر ينظر إليها متأملاً مما أشعرها بتوتر وقلق حادين.

أخيراً، وكانا يشربان القهوة، رفعت بصرها فإذا به يراقبها بعينيه الداكنتين الغامضتين.

«منذ شهر جاء والدي إلى هنا في زيارة قصيرة.» كان ذلك أول ما تبادر إلى ذهنها من كلام.

«يسرني ذلك.»

«قال إنني يجب أن أشكرك لأنك جعلته يثوب إلى رشده.»

هزّ كتفيه: «رأيت كم كنت مجروحة من جراء نبذه لك. وهو

www.fiilas.com

لم يحتج لأكثر من دفعة خفيفة لكي يسلك المنحى الصحيح.»

دفعة خفيفة؟ لقد كانت معممة تبعاً لرواية أبيها!

«شكراً، يا ماكس. أحسبك لن تعرف أبداً مقدار تقديري لصنيعك هذا.» نظرت في عينيه المكتئبتين وتساءلت عما يكمن خلفهما، وعما يدور في رأسه من أفكار؟ وكيف سيؤثر عليها؟ وترها جهلها كثيراً حتى فاق احتمالها. «لماذا تنظر إلى هكذا؟»

«لدي مهمة أخرى لك، يا كيري.»

تصلب جسدها وكان كل كيانها يرفض هذه العبارة. «لا أريدها. أفهمتك ذلك.»

«هي مهمة دائمة.»

«لا أريدها مهما كان نوعها. حتى لو كانت...»

«أريدك أن تتزوجيني.»

«... آخر مهمة سأحصل...» اخترقت كلماته الهادئة ذهنها المذهول فحملقت به بانصعاق، وسرها أنها كانت جالسة إذ كانت أرض المطبخ تميد تحت قدميها. وسألته بوهن: «ماذا قلت؟»

«تزوجيني، يا كيري.»

ثمة خطأ رهيب. فماكسويل هاربر لا يمكن أن يقول كلاماً كهذا؛ هذا مجرد خداع قاس من ذهنها المعذَّب. وشهقت تسأله: «هل أنت مجنون؟ أم أنا جننت؟»

«أفضل الجنون معك على الجنون بعيداً عنك.»

«لا... لا أصدق ما تقول.»

«بل صدقيه» أخذ يديها في يده وأردف: «سألتني مرة، إن كنت أشعر بالوحدة أحياناً. هل تذكرين؟»

«أذكر جيداً.» سحبت يديها من كفه الدافئة ثم نهضت واقفة

وسارت إلى النافذة. حملقت إلى عريشة العنب الجافة والمتسلقة جدار الحديقة، ولكنها استذكرت في مخيلتها نظرة الازدراء على وجهه أثناء تناولهما العشاء في فندق مالتاموهي، وقالت الآن مرددة جوابه حرفياً: «قلت إن الوحدة هي حالة ذهنية تغير نفسها للخمول.»

«كنت مخطئاً.» وأردف: «في الأشهر الماضية عملت بكد، وقلما عملت بمفردي، إنما كنت أشعر بالوحدة لأنك لم تكوني معي لتشاركيني كل ذلك.»

«لا... لا تعذبني، يا ماكس.» لقد قرأ قلبها الصدق في عينيه وصوته ولكن عقلها الحذر بقي مشككاً: «كيف تريدني أن أصدقك وأنت لم تحاول الاتصال بي مرة واحدة في غضون الخمسة أشهر الأخيرة؟»

«لأني كنت مصمماً على نسيانك، ولكن لسبب غامض ما، طلبت إلى شقيقتي أن تبقى على اتصال بك.» كان يخترق جسمها بعينين متأججتين ملامساً أعصابها المخيفة، ثم نظر بشوق إلى محياها وقال: «كيري أعترف بصراحة بأن نساء عديدات دخلن حياتي ولكني كنت أفقد اهتمامي بهن حتى قبل أن أفترق عنهن. أما معك فالأمر كان مختلفاً. ولما ودعتك في ويندهوك فارقتك مرغماً، وبرغم كل محاولاتي، استحال عليّ نسيانك. فقد كنت معي أينما ذهبت وكيفما فعلت، بل أنك طاردتني في أحلامي، حتى اعتقدت بأني ساجن لا محالة لفرط ما فكرت فيك.»

كان الجو حولهما مشحوناً بالعاطفة. مد ذراعيه صوبها فتراجعت بانكماش حتى التصق ظهرها بالخزانة وحذرته باختناق: «لا تلمسني!»

www.liilas.com

وضع يديه على الخزانة آسراً إياها بين ذراعيه من دون أن يلمسها ولكن كل عصب صغير في جسدها ارتعش فجأة لاحساسها بقربه.

«اكتفيت مساء أمس بأن أكون معك تحت سقف واحد، وأشم رائحتك من خلال سريرك، أما الآن فأحس رغبة يائسة في أن أضمك إلى صدري وأتحسس دفء جلدك الناعم، وأضيع معك.»

«كلا» هتفت رافضة هذه الحميمية إلا أن هذه الأفكار جعلتها تقلص يديها على جنبيها وكأنها تمحو بذلك صورة تلك العواطف الحميمة.

غمغم ماكس وأنفاسه المنتعشة تلفح جبينها المتعرق: «لست أعمى، يا حبيبتي، قد تقول شفتاك لا ولكن جسدك ما انفك يقول نعم منذ أن دخلت المطبخ هذا الصباح. إعترفي بذلك، يا حبي.»

يا حبيبتي؟ يا حبي؟ لقد نطق هذه الكلمات برقة متناهية ولم يعد لديها أدنى شك في حبها له.

قال لها باقتناع: «أحبك يا كيري.»

استكانت إلى صدره وغمغمت: «لم أتخيل أن أكون سعيدة إلى هذا الحد.»

«ولا أنا.»

شعرت برضى عارم، وخطر لها الآن أن تطرح عليه تلك الأسئلة التي ما انفكت تحيرها: «هل أنجزت الفيلم الوثائقي الذي كنت تصوره في اوستراليا؟»

«كلا، فخمسة أشهر في استراليا من دون وجودك معي كانت كل ما قدرت على احتماله.»

«إذن، عليك أن تعود.»

«بوسعي أن أنتظر.» ثم رنا إليها فقرأت السؤال في عينيه قبل أن يتفوه: «هل تتزوجينني، يا كيري؟»

أرادت أن توافق ولكن ليس قبل أن تتأكد من أمر كانت بحاجة لمعرفته.

قالت: «ماكس، أنا أحبك كثيراً ولذا لا أريد أن أقيدك إلى شيء لا تريده فعلياً.»

«هل تقترحين أن نعيش معاً من دون زواج؟»

«بالطبع لا، ولكن...» كانت في حلقها غصة فابتلعت ريقها وتابعت: «قلت لي مرة إن الزواج لن يتلاءم مع مهنتك.»

حملت عيناه تذكار عتاب قديم حين تناول يدها وراح يمرر أصبعه على راحة كفها، وأجاب: «لم أدرك آنذاك كم ستكون الحياة بلا معنى من دون وجودك فيها. وقد أدركت خلال الأشهر الماضية الطويلة، بأن الرجل عندما يحب امرأة بقدر ما أحبك لن يصعب عليه أن يتغلب على مطلق مشكلة.» ابتسم وأردف ممازحاً: «ثم إن زواجي منك يعني أنني سوف استغني عن استخدام مصور آخر.»

سألته متجاهلة تعليقه: «ماذا عن الانجاب؟ أنا شخصياً سأرغب مستقبلاً في انجاب أطفال وأنت قلت سابقاً بأنك لا تود أن تكون بعيداً من أولادك في أوقات احتياجهم إليك.»

«هناك مربيات أطفال ومعلمون خصوصيون، ثم تخيلي، من ناحية أخرى، الثقافة الشاملة التي سيجنيها أولادنا من سفرهم معنا إلى بلدان العالم المختلفة.»

عاد يبتسم بمكر فقالت وهي تبادله الابتسام: «يبدو أنك اعددت لكل شيء.»

www.liilas.com

«كان لدي وقت طويل للتفكير، وفيك وحدك. ولكن وجودك الآن بين ذراعي، يفضل ذلك مليون مرة.»

«اوه، يا ماكس.» تنهدت، وكان قلبها في عينيها حين مشطت بأصابعها الحانية شعر فوديه المختلط بالشيب: «لقد افتقدتك كثيراً.»

«مازلت أنتظر جوابك.»

«ماكس، كانت أشهر فراقك جحيماً بالنسبة إلي، كنت شبه ميتة، أعيش من يوم ليوم، لذلك لا أرغب في شيء بقدر ما أرغب في الزواج منك وأن أقضي معك سائر أيام حياتي. أعتقد انني عرفت منذ لقائنا الأول بأنني سأغرم بك في نهاية المطاف وقد خشيت آنذاك من احتمال أن أفقد استقلاليتي وأعتمد بالتالي اعتماداً كلياً على شخص آخر يعيلني.»

أطلق سراحها فوراً، ثم رفع رأسه بخيلاء وقال: «لدي مهمة لك، يا كيري آن تلسون.»

ردت مجاريةً مزاحه: «حقاً يا ماكسويل جوناثان هاربر؟»

«سوف أمضي ثلاثة أسابيع في جزيرة موريس قبل أن أعود إلى استراليا، فهل تودين أن ترافقيني لنحول الرحلة إلى شهر عسل؟»

«حاول، إذا كان باستطاعتك أن تقنعني.» ضحكت عيناها وعانقته، فغمغم لاثماً شعرها: «أنا في نعيم، يا كيري، ولكن من الخير أن تتزوجيني حالما أنجز المعاملات المطلوبة.»

وجمت برهة لتفكر... فالزواج ارتباط نهائي ولا يمكنها الإقدام عليه وفي ضميرها كذبة.

«ثمة شيء ينبغي أن تعلمه، يا ماكس.» رفعت رأسها لتنظر في عينيه ولكن حياءً سخيفاً تملكها فخفضت بصرها

وأردفت: «تلك الليلة في بوساكوس، لم أكن قد أقمت علاقة مع أحد.»

«إذاً كان ظني في محله.»

قالت وهي تتطلع إليه بقلق: «لا تغضب، يا ماكس... أحبك! نعم أحببتك كثيراً، ولا شيء آخر يهم.»

أزاح بلطف شعرها الحريري عن محيّاها وابتسم لها برقة متناهية، مست روحها في الصميم، ثم غمغم: «أنا متيم بك، يا أغلى وأحلى حبيبة، ويسرني أني كنت الأول في حياتك.»

بدت أشجار النخيل على شاطىء الجزيرة مثل صور ظلية محفورة في الغسق الناري. تنهدت كيري اعجاباً بجمال المشهد واسترخت سعيدة بين ذراعي زوجها القويتين.

أوشك شهر العسل على الانتهاء، وقد أمضيا ثلاثة أسابيع مثالية في جزيرة موريس، وسوف يرحلان عما قريب.

رفعت رأسها لتنظر إلى ماكس فإذا به يحدق في الأفق البعيد وكأنه مستعجل لاختراقه ليرى ما يكمن خلفه، ولكن نظرته هذه لم تقلقها لمعرفتها الأكيدة بأنه سوف يصطحبها في كل أسفاره المقبلة، فهما ينتميان إلى بعضهما البعض، وهذه المعرفة زودتها بالرضى والسلام.

تمت